

دار اكتب
قصص
أفكار
شيطانية
محمد عبد العليم

٤٣ ٧٨ ٣١

أفكار شيطانية

أفكار شيطانية
محمد عبد العليم
قصص
تدقيق لغوي: د.إيمان الدواخلي
تصميم الغلاف : محمد عيد
رقم الإيداع:- 2016 / 9477
I.S.B.N: 978-977-488-462-7

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .
المدير العام : يحيى هاشم
هاتف : 01110622103 - 01147633268
E – mail :daroktob1@yahoo.com
Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية ، 2016 م

أفكار شيطانية

محمد عبد العليم

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع



إقناع



قال الدكتور (هاشم) وهو يستند بمرفقه على المدفئة أوروبية الطراز، والتي راحت السنة اللهب تضطرم بداخلها، ومن حين لآخر تصدر صوت طرقعة الأخشاب التي تبعث في الجسد قشعريرة غير مفهومة:

– هل ما زلتم تصدقون كل ما تقرؤونه في كتب التاريخ، وتعتبرونها من المسلمات غير القابلة للنقاش؟ إذًا فلتستمعوا لي، فما سأقوله ربما يغير قناعتكم إلى الأبد.

***

الدكتور هاشم هو مثلي الأعلى منذ أن كنت طالبا لديه في قسم التاريخ بكلية الآداب، وحتى اليوم.. لا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يكافئ الدكتور هاشم في علمه الغزير أو وقاره المهيب أو طيبته الصافية أو صرامته المحببة.. هو دائما يبهرني بما لديه، وطوال سنين

معرفتي به ما يزال يذهلني بمعارفه، كأول يوم رأيته فيه واستمعت إلى شرحه الممتع.

ربما كان إعجابي الشديد به هو ما جعلني طالبا مميزا لديه، أو ربما لأني أردت أن يلاحظني ويقربني منه فذلك ما جعلني أتفوق وأبز أقراني، حتى صرت أول دفعتي طوال فترة دراستي بالكلية، مما رشحني لأعمل معيدا فيها، ثم أشرف بعد ذلك بأن أكون أستاذا مساعدا لمادة الدكتور هاشم.

هو أيضا لاحظني منذ البداية، وعرف أنني مختلف عن الجميع، لذا فقد كنت دوما طالبه المفضل. كنت دوما قريبا منه أفتش الكتب، وأبحث عن أعقد مسائل التاريخ وأطرحها عليه، فقط لأثير انبهاره. ولكنه دوما كان يبتسم بهدوء، ثم بلهجته الهادئة ونبرته الواضحة يبدأ شلال من المعلومات الرائقة الصافية ينحدر من بين شفتيه.. هو باختصار أعلم أهل الأرض بالتاريخ؛ من وجهة نظري على الأقل.

الدكتور (هاشم السلانيكي) دوما كان اسمه يثير دهشة من يسمعه لأول مرة، حيث إن اسم السلانيكي غير مألوف للعامة. إلا أنه – بهدوئه المعهود– يوضح لمن يدهش من اسمه تاريخ عائلته التي تنحدر من رشيد، وجده الأكبر علي بك السلانيكي، حاكم مدينة رشيد وقائد مقاومتها ضد حملة فريزر.

فيلته بالمعادي قبلة للمثقفين ورجال الأدب والفن، الذين يلتقون تقريبا كل ليلة في صالونه، الذي أعتبره أفضل صالون أدبي يمكن لطالب الثقافة أن ينهل منه. وبطبيعة الحال، فلقد كنت ضيفا دائما في صالونه الثقافي، والذي يدهشك بتنوع مواضيعه. ورغم ذلك، تجد الدكتور هاشم كالفارس الذي لا يشق له غبار، مهما كان موضوع النقاش.. فلو كان موضوعا علميا، أحسست أن الدكتور هاشم لم يخلق إلا له.. وإن كان موضوعا أدبيا، وجدته ناقدا وأديبا وشاعرا، وإن كان موضوعا تاريخيا، فهو مجال تخصصه الذي لا يضارعه فيه أحد. لذا، فقد كان الدكتور هاشم دوما هو النجم اللامع في سهراتنا في صالونه.

في الليلة الماضية، اكتشفت فنًا آخر برع فيه الدكتور هاشم حتى النخاع، ألا وهو فن الإقناع!!

كان موضوع الصالون يبدو مملا للكثيرين، فقد كان مناقشة كتاب لكاتب غربي يدعى (وليام. ج. ماكولاف) وكان عنوان الكتاب (فن التحدث والإقناع).

راح الدكتور هاشم بأسلوبه الممتع يناقش الكتاب ويشرح مضمونه، وكيف أنك لو سرت على الخطوات التي يفصلها الكاتب ستتمكن من تحسين قدراتك الخطابية، ويصبح بإمكانك إقناع المستمعين لك بفكرتك أو قناعتك بسهولة ويسر.

اعترض أحد الحاضرين على كلام الدكتور هاشم، معللا ذلك بأن الحقيقة الواضحة كافية بذاتها لإقناع كل العقول، أما الأكاذيب القائمة على أوهام لا يمكنها إقناع أحد، حتى ولو كان من يقولها أبرع الخطباء، حتى لو كان شيشرون نفسه لما صدقه أحد.

ابتسم الدكتور هاشم ابتسامته الهادئة وهو يقول:

– الواقع يشهد على خطأ ما تقول يا عزيزي، فلا يوجد في الكون حقيقة أوضح من وجود الله عز وجل، ولكنك ستجد مليارات البشر الذين يكذبون هذه الحقيقة الناصعة. كما أن الأكاذيب هي ما ساق دولا كثيرة لحروب طاحنة، قتل فيها الملايين، فقط لبراعة زعماء هذه الأمم في إقناعهم بعدالة قضيتهم.. إن هتلر وموسوليني هما مثال حي على هذا.

بهت السائل من إجابة الدكتور هاشم، ولكنه ابتلع ريقه وقد أبى كبرياؤه الاعتراف بخطئه، فقال متحديا:

– ولماذا ندخل في حوارات سفسطائية لا طائل من ورائه؟..! فلتقدم لنا دليلا عمليا الآن على صحة ما تقول.. تفضل حاول أن تقنعنا بشيء يخالف الحقائق، وأعدك أن لا أحد من الحاضرين هنا سيقتنع بما ستقوله إن كان يخالف الحقائق المعروفة، مهما كانت براعتك في السرد أو مهارتك في الخطابة.

أعقب قوله هذا بنظرة متحدية إلى الدكتور هاشم، الذي صمت برهة وهو ينظر إلى الرجل، في حين تابعت عيون الحاضرين هذه المعركة النفسية، وقد صار الجو الآن أكثر حماسا وإمتاعا، وفي نفسي كنت واثقا أن الدكتور هاشم يستطيع أن يفعل أي شيء، مما جعلني متلهفا لمعرفة كيف سيعالج هذا الموقف.

بعد هذه اللحظات والنظرات المتحدية، أفتر ثغر الدكتور هاشم عن ابتسامته الهادئة المعهودة، ثم قال بنبرته الصارمة:

- حسنا.. سأعطيك دليلا عمليا.. ولكن دعوني اولا أحذركم أن ما سأقوله لكم الآن هو محض خيال، ولا يمت للحقيقة بصلة، فلا تصدقوه.

اتسعت العيون في دهشة مما قاله الدكتور هاشم.. فهو بتحذيره هذا قد قضى على فرصته لإقناع الحاضرين بقصته، مهما كانت متقنة.

كان اندهاشي أنا أيضا يفوقهم، وإن كانت ثقتي في أستاذي تجعلني أتحرق لمعرفة كيف سيواجه هذا التحدي، الذي قام بزيادة درجة صعوبته بنفسه.

الحضور جميعا قد تأهبوا للاستماع، بعقول قد اتخذت أهبتها لرفض كل ما سيقوله، بناءً على تحذيره الواضح. أرجع الدكتور ظهره إلى الوراء، ليغوص في مقعده، ثم قال بصوته الهادئ:

- إن ما سأحكيه لكم الليلة سيتصادم مع معارفكم وقناعتكم.. سيتصادم مع ما تظنون أنتم أنه الحقيقة المطلقة، التي لا يوجد غيرها حقيقة. ولكن من قال إن الحقيقة دوما هي ما تعتقده الغالبية العظمى من الناس، وأن ما تعتقده الأقليه هو الخطأ؟ ألم يكن أنبياء الله أقلية؟ ألم يكن المشركون والكفار هم الأغلبية؟ وبالرغم من ذلك فإننا الآن نعرف أن الحقيقة التي آمن بها الكفار (الأغلبية) هي محض باطل، وأن حقيقة الأنبياء (الأقلية) هي الحقيقة التي لا مراء فيها. ألم تخالف حقيقة جاليليو بأن الأرض تدور، معتقد الشعب الأوربي بأكمله، وعلى رأسه البابا، الذين قالوا إن الحقيقة هي أن الأرض ثابتة؟

قام من مقعده، وشبك كفيه خلف ظهره وهو يتساءل:

- هل تعلمون كيف هزمت حملة فريزر في رشيد؟

سرت همهمات بين الحضور، في حين رد عليه المتحدي قائلا:

- بالطبع كلنا يعلم.. لقد خدع أهالي رشيد رجال الحملة الانجليزية، واختبأوا في بيوهم، وتركوا لهم المدينة خالية. وعندما دخل الإنجليز المدينة، وجدوها خالية، فانتشروا في أنحائها، وهنا خرج عليهم الرجال بما لديهم من أسلحه وعصي، وقامت النساء بإلقاء المياه المغلية على الجند من النوافذ. كانت حركة مفاجئة أربكت الإنجليز وجعلتهم يرتدون عن المدينة منهزمين.

صفق الدكتور هاشم بيديه برفق وهو يقول: أحسنت يا عزيزي؛ يبدو أنك كنت تحصل على الدرجات العليا في مادة التاريخ في المدرسة. ولكن هل معنى أن التاريخ قد ذكر لنا حدثا، وتواترت أخباره في الكتب، أن هذه هي الحقيقة بالفعل؟

قال الدكتور (هاشم) وهو يستند بمرفقه على المدفئة أوروبية الطراز، والتي راحت ألسنة اللهب تضطرم بداخلها، ومن حين لآخر تصدر صوت طرقعة الأخشاب التي تبعث في الجسد قشعريرة غير مفهومة:

- هل ما زلتم تصدقون كل ما تقرؤونه في كتب التاريخ، وتعتبرونه من المسلمات غير القابلة للنقاش؟ إذا فلتستمعوا لي، فما سأقوله ربما يغير قناعتكم إلى الأبد.

تعلمون أني أنحدر من عائلة (السلانيكي) وأن جدي الأكبر علي بك السلانيكي كان هو حاكم رشيد أبان حملة فريزر على مصر، وكتب التاريخ تذكره كقائد شجاع ومخطط بارع، استطاع أن يدحر الحملة في رشيد.

ولكن هل هذه هي الحقيقة؟

الليلة سأكشف لكم سرا تعاهدته أسرة السلانيكي على مر أكثر من قرنين من الزمان.. سرا ينتقل من الأب إلى الابن بعد أن يقسم أغلظ الايمان على كتمانه والمحافظة عليه وحمايته بحياته.

كانت العيون الآن متسمرة على الدكتور هاشم، والآذان مصغية إليه، فقال بصوت واضح:

- أحقا تصدقون رواية التاريخ لما حدث في رشيد؟ ألم يتساءل أحدكم يوما ولماذا رشيد بالذات؟

بدت الحيرة على الوجوه، وكأنما لم يفهموا مغزى سؤال الدكتور هاشم، الذي ابتسم موضحا:

- في عام **1807** وصلت الحملة الإنجليزية، بقيادة ماكتري فريزر إلى الإسكندرية، واستطاعت احتلالها بسهولة. وكان من الأوفق التقدم بالقوة نحو القاهرة، لاستغلال الفرصة وعامل المفاجأة، حيث إن الوالي، محمد علي باشا في ذلك الوقت، كان منشغلا بمحاربة المماليك وقائدهم مراد بك، وكانت الفرصة سانحة له لدخول القاهرة بأقل مجهود، حيث إن محمد علي لم يكن قادرا على الحرب في جبهتين.

تقدم ليمسك بكرسيه الذي كان يجلس عليه منذ قليل، ويستند عليه براحتيه وهو يتابع:

- ولكن على الرغم من ذلك، نجد فريزر يترك هذه الفرصة الذهبية، ويتجه بقواته إلى رشيد!! ما المهم في رشيد إلى هذا الحد الذي يجعل الإنجليز يتخذوها هدفا؟ ألم يسيطروا بالفعل على ميناء

الإسكندرية أهم الموانئ المصرية على البحر المتوسط؟ ما حاجتهم إذًا لرشيد؟

بدأت عقول الجالسين الآن في التساؤل فعلا، وبدا لهم تساؤل منطقي. تابع الدكتور هاشم:

- دعوني أذكركم أن رشيد في هذا الزمن لم تكن مدينة بالمعنى المفهوم، وإنما أقرب ما تكون لقرية كبيرة يعمل أهلها بالصيد غالبا، وبها حامية رمزية من الجند (700 جندي)، غير قادرة على حمايتها ضد هجوم قوي منظم، فما بالكم بحملة ضخمة أعدت لغزو مصر كلها وجهزت بآلاف الرجال المتمرسين، والذين خاضوا عشرات المعارك، وفتحوا كثيرا من البلدان، ومجهزين بأفضل العتاد الحربي المعروف في ذاك الوقت.

كان الأسطول الانجليزي في ذلك الوقت هو فخر التاج البريطاني، وأقوى اساطيل العالم، والذي أذاق من قبل أساطيل فرنسا الويلات هنا في أبي قير، أو في معركة نلسون ونابليون في طرف الغار.

كانت مدفعية الأساطيل البحرية، بالإضافة لمدفعيتهم البرية تستطيع تسوية رشيد بالأرض وتمهيدها بسهولة للإنجليز، إن هم أرادوا ذلك؛ ولكنها لم تفعل.

لذلك دعوني أعيد سؤالي مرة أخرى.. لماذا رشيد؟

أحقا تصدقون الرواية التي تقول إن الأهالي، ببعض الأسلحة المضحكة والنبابيت والنساء بالمياه المغلية، استطاعوا هزيمة جيش متمرس حسن التدريب والتسليح؟

إن جيش بونابرت المنهك بسبب طول حصار عكا، والممزق بفعل الطاعون، والمنهزم في حملته على الشام، قد استطاع بسهولة السيطرة على ثورة القاهرة، وهي المدينة الضخمة المتخمة بالبشر والرجال الأشداء.. فهل استطاعت رشيد فعل ما لم تستطع أن تفعله القاهرة؟

هل كان جيش فريزر من السذاجة، وهو يدخل شوارع رشيد فيجدها خالية، ليستمر في الدخول دون أن يتجشم أحد الجند عناء اقتحام أحد البيوت ليعرف أين الناس؟

هل صدقتم بالفعل تلك الصورة المضحكة الكاريكاتورية لجيش مسلح بأحدث ما توصلت إليه قرائح البشر يفر من النبابيت والسكاكين والمياه المغلية؟

دعوني أكرر تساؤلي مرة أخرى.. لماذا رشيد؟

إن إجابة هذا السؤال تحتاج منا العودة بالتاريخ سبع سنوات، عندما كان الفرنساويين يحتلون مصر، وبعثاتهم العلمية تدور في كل شبر من أرضها، تدون وترصد كل ما تراه فيها، تمهيدا لوضعه في ذلك السفر الضخم المسمى بكتاب وصف مصر.

إن الولع الفرنسي بمصر ولعًا غير طبيعي، وتشوقهم لكل ما هو مصري لهو أحد الأعاجيب.. لقد كانوا يبحثون بإخلاص منقطع النظير، وكأنما يبحثون عن شيء يعرفون مسبقا أنه موجود.

وفي أحد تلك البعثات الاستكشافية، استطاع الضابط (بوشار) اكتشاف حجر رشيد، والذي يعد من أهم الاكتشافات الأثرية في التاريخ، لأنه كان المفتاح لحل رموز اللغة المصرية، وفتح باب التاريخ المصري المغلق.

هذا ما ذكره لنا التاريخ المعروف.. ولكن أيا من كتب التاريخ لم يذكر الحقيقة كاملة!!.

حقيقة ما كان مطمورا تحت رمال رشيد، والذي أثار الفزع في نفوس الفرنساوية، لدرجة جعلت قائد الحملة يقبل شروط تسليم مهينة، بل ويقبل أن يرحل رجاله على متن سفن أعدائهم الإنجليز، حيث إن سفنهم كانت قد دمرت قبل ذلك في معركة أبي قير.

ثم تساءل باهتمام: هل يعرف أحدكم من كان القائد الأخير للحملة الفرنسية؟

رد أحد الحاضرين: بعد عودة (نابليون) إلى فرنسا، تولى القيادة (كليبر)، وبعد مقتله على يد سليمان الحلبي تولى القيادة الجنرال (مينو).

ابتسم الدكتور هاشم بخبث وهو يقول: وهل تعرفون أن الجنرال مينو، الذي وقع اتفاقية الاستسلام، هو نفسه كان الحاكم العسكري لرشيد؟

ترى ما الذي رأه بوشار وفرقته، وعرفه مينو، ليجعله يفر من مصر بجنده، كما لو كانت شياطين الأرض تلاحقه؟

كانت السفن الانجليزية هي التي أقلت الجنود الفرنسيين عائدة بهم إلى فرنسا، وفي ليالي البحر الباردة كانوا يزجون وقتهم بشرب الخمر والتسامر في الأحاديث، ورواية ما رأوه من غرائب وعجائب في مصر.

ويبدو أن أحد الضباط الفرنسيين قد باح بشيء كان يجب عليه ألا يبوح به، بعد أن لعبت الخمر برأسه، لتصل تلك المعلومة لأذن أحد البحارة الإنجليز، لتجد طريقها بدورها إلى قادته، الذين يجدون في تلك المعلومة ما يستحق تجريد حملة ضخمة للوصول لذلك الشيء، الذي ألقى الرعب في قلوب الفرنسيس، وجعلهم يخرجون من مصر يتكفئون.

علا الذهول والترقب وجوه الحاضرين، حتى لو أسقطت إبرة، لصار دويها مثل انفجار القنابل.. كانوا يستمعون إليه بكل حواسهم، وكأن على رؤوسهم الطير، وقد تدلت فكوكهم ذهولا مما يسمعون. نظر الدكتور هاشم إليهم وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى قائلا: وهنا

يأتي دور عائلتي.. عائلة السلانيكي، والتي كان أفرادها قد عرفوا السر المحرم، والذي تعاهدوا على حفظه وسرية وجوده، حتى يأتي الوقت المناسب لاستخدامه.

كان جدي الأكبر علي السلانيكي هو كبير العائلة، والحافظ لسرها، وكان حاكم رشيد. ولقد عرف بخبرته العسكرية أن المقاومة لن تجدي مع قوة بهذا الحجم، والامدادات لن تأتيهم من القاهرة في الوقت الحالي، نظرا لبعد المسافة ولانشغال الوالي بحروبه مع المماليك. وقتها لم يجد بدا من استخدام ذلك الشيء للدفاع عن رشيد.

أخذ نفسا عميقا قبل أن يقول:

– يكفي أن تعرفوا أن فريزر، عندما عرف بما حدث للقوة التي أرسلها لاحتلال رشيد، كاد قلبه يتوقف من الرعب، حتى أنه لم يبد أي شروط لتسليم الإسكندرية لمحمد علي، وسارع بأخذ قواته والعودة مسرعا إلى إنجلترا لا يلوي على شيء.

يومها تعاهد أهل رشيد على نسيان ما رأوه، وأن يكتموا حقيقته، وإلا اتهموا بالجنون. نسي أهل رشيد أو تناسوا ما حدث في ذلك اليوم، وأقنعوا أنفسهم بحكاية، مفادها أنهم نصبوا كمينا لقوات فريزر داخل المدينة، إلى آخر هذا الهراء الذي تقرءونه في كتب التاريخ، وتعبر عليه عيونكم دون أن تحاولوا تفسيره أو نقده نقدا علميا سليما.

رغم نسيان أهل رشيد لتلك القصة، إلا أن عائلتي ظلت تتوارث هذا السر عبر الأجيال، وأصبحنا نحن حماة هذا السر، والمسؤولين عن الشيء الذي ننتظر أن يحين الوقت المناسب لاستخدامه.

تقطعت أنفاس الحضور انبهارا بما يسمعون، وقد انطبعت على وجوههم نظرات ذهول، قطعه هذا المتحدي الذي سأل بصوت متحشرج:

– وما هو هذا الـــ... شيء؟

نظر إليه الدكتور هاشم بخبث وهو يتساءل:

– أي شيء تقصد؟

ابتلع الرجل ريقة بصعوبة، وهو يقول:

– الشيء الذي لا يعرف سره إلا عائلتك، والذي تتوارثونه عبر الأجيال.

عاد الدكتور هاشم إلى مقعده، وغاص فيه باسترخاء مستمتع، قبل أن يقول:

– ألم أحذركم من البداية ألا تصدقوا ما سأحكيه لكم؟

صدمتهم عبارته، كما لو كانت دلوا من المياه المثلجة قد سقط عليهم في هذا الطقس البارد، فانتفضت أجسادهم، قبل أن ترتفع الضحكات، ثم عم الصالون تصفيق حاد، والكل يضحك ويثني على

الدكتور هاشم، الذي سحرهم وبهرهم بقصته الخيالية تلك، لدرجة الاقناع.

بعد عدة نقاشات قصيرة حول قصة الدكتور هاشم، ابتدأ الحاضرين في القيام، شاكرين للدكتور هاشم تلك التجربة الفريدة التي سيتذكروها إلى الأبد، وخرج الجميع ضاحكين مستمتعين بأحداث الليلة.

كنت أنا المتبقي مع الدكتور هاشم، فقمت إليه مصافحا، وهنأته على قصته الجميلة ونجاحه المبهر في إقناع الحضور بها، ثم قلت له بأدب:

– اعذرني يا سيدي، ولكني لم أخدع مثل الباقين

ارتسمت ابتسامة على وجه الدكتور هاشم قائلا: ولم؟

قلت له: لأنك ذكرت في بداية قصتك أن ما ستحكيه سر من أسرار عائلتك، أقسمت على حمايته.. وما كنت لتفشي سرا أقسمت على حمايته بهذه السهولة.

ابتسم الدكتور هاشم، وبدت على شفتيه لمحه من الحزن، قبل أن يهز رأسه علامة الموافقة.. ودعته، فقام بإيصالي حتى باب الفيلا، وقبل أن أنصرف قال لي بصوته الهادئ:

– اسمع مني يا بني.. أحيانا يكون أفضل طريقة لحماية السر هي جعله ظاهرا للعيان.

ثم ابتسم لي مرة أخرى وهو يغلق الباب..

خرجت وأنا شارد، محاولا فهم ما يزيد الدكتور هاشم أن يقول. هل يعقل أن ما قاله الليلة لم يكن إلا الحقيقة؟ أم أنه أراد العبث معي لآخر مرة هذه الليلة؟

ولازلت حتى الآن أتساءل: هل كان الدكتور هاشم يقدم لنا الحقيقة، التي تناسيناها جميعا؟ أم أنه أكثر من رأيت قدرة على الإقناع؟!

الشيطان



لم يتخيل محمود أن القضية التي استدعي للتحقيق بها يمكن أن تتطور بمثل هذه الطريقة، أو تنتهي بمثل هذه النهاية. بالكاد يستطيع حفظ توازنه، وهو يقف على إفريز تلك الشرفة في الطابق السابع، ينظر إلى تحت قدميه يتأمل الطريق المكتظ بالسيارات، والتي راحت تصدر ضجيجا عاليا يغطي على صراخ رجاله، الذين راح ذلك الشيء في داخل الشقة يسلخهم أحياء.

حانت منه التفاتة إلى ما وراء ظهره، حيث أشلاء الرجال تملأ الشقة خلفه، في حين كان الشيء ينتهي من تمزيق المسكين الأخير الذي سكتت صرخاته.. على الأقل لقد استراح من ذلك الهول.

وقف ذلك الشيء وسط الاشلاء، وقد راحت الدماء تقطر من مخالبه، وفغر فاه عن صفوف من الأنياب الحادة التي راحت بدورها تقطر بدماء ضحاياه.

نظر ذلك الشيء إلى محمود بشراسة، قبل أن يتقدم من باب الشرفة المنزلق ذي الزجاج القوي المضاد للكسر، والذي أغلقه محمود خلفه.. كان يعلم أن ذلك لن يوقفه.. بل حتى لن يعطله.

وصل الشيء إلى الباب، ورفع يده المخلبية، ثم هوى بها على الباب، الذي تحطم بصوت مكتوم، بل انخلع الباب ذاته من مكانه، ثم تقدم من محمود، الذي أدار له ظهره مرة أخرى ومد رجله اليمنى، كما لو كان يتحسس بها الفراغ.

مد الشيء يده ليقبض على محمود.. أغمض محمود عينيه، قبل أن يميل بجذعه إلى الأمام ليخرج مركز ثقله خارج قاعدة ارتكازه، ويترك الباقي للجاذبية، التي عملت بكفاءة كالعادة، وفي اللحظة التالية كان محمود يحلق في الفراغ ساقطا من الشرفة.. من الطابق السابع .

***

قبل ساعتين

رفع محمود الملاءة الملطخة بالدماء، التي تغطي الجسد المسجى على رصيف الشارع، عن وجه الجثة ونظر قليلا لوجه المرأة التي فقدت عيناها بريق الحياة.. أعاد الغطاء مكانه مرة أخرى، قبل أن يقف وينظر نظرة شاملة على المشهد أمامه.. وأمامه، على الرصيف الذي

أحاط به الجنود مانعين المارين من الاقتراب،كان هذا المشهد المروع..سبعة جثث افترشت الطريق، وتغطت بتلك الملاءات الملطخة بالدماء..

– ترى أي شيء هذا الذي يدفع سبعة أشخاص للانتحار قفزا من الشرفة؟

هز زميله رأسه في حيرة وهو يجيبه:

– لا أعلم يا سيادة الرائد، ولكن لدينا بعض المعطيات تنهد قبل أن يقول: هؤلاء السبعة هم أفراد عائلة واحدة، الأب والأم وثلاثة أبناء بالإضافة لأخي الأب وزوجته، اللذين كانا في زيارة للعائلة.. شهود العيان يؤكدون أنهم سمعوا صرخات عالية قبل لحظات من اندفاع العائلة إلى الشرفة، والسقوط بهذا الشكل إلى الطريق، ليلقوا حتفهم فورا.

تساءل محمود بحيرة: هل هناك من رأهم يقفزون؟

جابه زميله: نعم، هناك بعض سكان البنايات المجاورة رأوهم وهم يندفعون من داخل الشقة، كما لو كان هناك شيطان يطاردهم. ضيق حاجبيه وهو يردد: شيطان!!

ثم أضاف شاردا: ترى ما الذي أفزعهم لهذا الحد؟

قال زميله: لا أعلم يا سيدي.. ولكن يمكنني أن أضمن لسيادتك

عدم وجود أي شخص مع العائلة في ذلك الوقت، فباب الشقة كان مغلقا من الداخل عندما وصلنا، كما أن البواب أكد عدم دخول أحد إلى البناية بخلاف سكان البناية هذا اليوم، فاحتمال وجود قاتل أو شخص ما أجبرهم على إلقاء أنفسهم من الشرفة هو أمر مستبعد. لا يبقى أمامنا إلا أقوال الشهود، والتي تؤكد أن هناك ما أفزعهم لدرجة إلقاء أنفسهم من الشرفة.

التفت إليه محمود قائلًا: ولكن ماذا؟ ما الذي أفزعهم؟

- الوهم الجماعي!

التفت محمود إلى مصدر الصوت، ليجد نفسه أمام ذلك الرجل الأنيق ذي النظارات والملامح الهادئة، والذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة.

أشرق وجه محمود حين رأى وجهه قائلا: دكتور طارق، إنها فرصة طيبة أن ألقاك، كنت أعتقد أنك لا تقوم بالمعاينة الميدانية بنفسك.

ابتسم الدكتور طارق، الطبيب الشرعي المخضرم وهو يقول: نعم، ولكني عندما سمعت بهذه الحادثة قررت معاينتها بنفسي.

بدا الاهتمام على محمود وهو يقول: كنت تقول شيئا عن الوهم الجماعي يا سيدي.

هز الدكتور طارق رأسه مجيبا: نعم، الوهم الجماعي أمر حقيقي وواقعي، ويمكن أن يحدث لمجموعة من البشر في وقت واحد، ولكن ذلك يحتاج إلى طاقة نفسية سلبية عالية جدا، حتى تستطيع التأثير في عدد كبير لدرجة الانتحار.

قال محمود بشك: أعتقد أن ما تقوله يا سيدي أقرب ما يكون للخيال وليس الواقع.

ابتسم الدكتور طارق بإشفاق وهو يقول: ربما بدا لك كذلك، وهذا راجع لعدم اهتمامك بمجالات الميتافيزيقا أو علوم ما وراء الطبيعة.

ثم تنهد وكأنما سيلقي محاضرة وهو يقول: الطاقة النفسية القادرة على التأثير في مجموعة من البشر، ربما كان مصدرها شخص ما، ومثال ذلك ما يفعله فقراء الهنود وخدعة الحبل الهندية هي مثال حي على ما أقول، وفي القرآن الكريم هناك شيء كهذا في قصة سحرة فرعون يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾

فسحرة فرعون لم يغيروا حقيقة العصي ولا الحبال، وإنما أثروا في الناس حتى أوهموهم جميعا أن العصي والحبال استحالت ثعابين وحيات تسعى.

ويمكن أن يكون مصدر تلك الطاقة مكانًا.. بيتًا أو قصرًا أو بناية.. وهناك تفسيرات علمية كثيرة ترجع ظواهر المنازل والأماكن المسكونة إلى نظرية الطاقة السلبية.. حيث إن هناك أبنية بعينها تختزن تلك الطاقة وتشعها، وهذه الطاقة قادرة على تجسيد مخاوف الإنسان أو استخراج أسوأ مشاعره،ونحن لسنا بحاجة لزيارة القصور المسكونة في اسكتلندا وانجلترا، لنرى مثال حي على هذا، فمصر تزخر بمثل هذه المباني.

رفع محمود حاجبيه بدهشة من هذه المعلومة، في حين تابع الدكتور طارق: يمكنك زيارة الإسكندرية، وبالتحديد شارع رشدي، لتجد في هذا الحي الراقي بناية من ست طوابق، فاخرة الطراز، مبنية منذ الستينات، وبالرغم من هذا فباب البناية تم إغلاقه بالطوب، ولم يسكنها أحد منذ أن بنيت حتى اليوم. يمكنك أن تسأل كل أهل الإسكندرية عنها، لتسمع قصص من نوعية عمارة العفاريت أو العمارة الملعونة ومثل هذه القصص المثيرة.

أو يمكنك أن تذهب إلى مصر الجديدة، لزيارة أحد معالمها الأثرية المشهورة، والذي يعد بحق أحد علامات الأبنية ذات الطاقة السلبية المرعبة، وأنا أقصد هنا قصر البارون.

تململ محمود، وهو يستمع لما يقوله الدكتور طارق، وفي النهاية هز رأسه علامة الرفض قائلا:

– دكتور طارق إنك تحاول تحويل حادثة انتحار بسيطة إلى قصة خيالية و..قاطعه الدكتور طارق مستنكرًا: حادثة انتحار بسيطة! أتسمي انتحارًا جماعيًا لعائلة من سبعة أفراد حادثة انتحار بسيطة؟

تمتم زميل محمود بصوت خافت: ثمانية يا سيدي.

التفت كل من محمود وطارق إلى الضابط، الذي تمتم بحرج: العائلة مكونة من ثمانية أفراد، انتحر منهم سبعه فقط تساءل الدكتور طارق بلهفة: والثامن؟

تنحنح الضابط بتوتر مجيبا إياه: أعتقد أن لدينا شاهدًا كان موجودا داخل الشقة، ويمكن أن يخبرنا ما حدث.

تلاقت عينا محمود وطارق، والتمعتا.. فلقد كان هذا يعني الكثير..
يبدوا أن التفسير صار قاب قوسين أو أدنى.

لماذا يشعر أنه مر بذلك من قبل؟

الرياح باردة هذه الليلة، تكاد أن تجمد أطراف محمود، وهو يحاول بالكاد الحفاظ على توازنه على ذلك الإفريز الضيق للشرفة الكائنة في الطابق السابع. لم يتخيل أن القضية التي استدعي للتحقيق بها يمكن أن تتطور بمثل هذه الطريقة، أو تنتهي بمثل هذه النهاية. بالكاد يستطيع حفظ توازنه، وهو يقف على إفريز تلك الشرفة في

الطابق السابع، ينظر إلى تحت قدميه يتأمل الطريق المكتظ بالسيارات، والتي راحت تصدر ضجيجا عاليا يغطي على صراخ رجاله، الذين راح ذلك الشيء في داخل الشقة يسلخهم أحياء.

لحظة.. لماذا يشعر أن هناك شيئا ما مألوفًا هنا؟ هل تعمل ظاهرة ديجافوا بكفاءه في اللحظات التي تسبق الموت؟! حانت منه التفاتة إلى ما وراء ظهره، حيث أشلاء الرجال تملأ الشقة خلفه، في حين كان الشيء ينتهي من تمزيق المسكين الأخير الذي سكتت صرخاته.. "اللعنة! أكاد أقسم أنني مررت بهذا من قبل!"

نظر ذلك الشيء إلى محمود بشراسة، قبل أن يتقدم من باب الشرفة المنزلق ذي الزجاج القوي المضاد للكسر، والذي أغلقه محمود خلفه.. "حسنا أن ذلك لن يوقفه.."

هنا، يرفع المسخ يده ليهوي بها على الباب، ليتحطم بصوت مكتوم.. يصل إلى الباب.. يرفع يده المخلبية..هوى بها على الباب، الذي تحطم، بل انخلع الباب ذاته من مكانه، ثم تقدم من محمود، الذي أدار له ظهره مرة أخرى ومد رجله اليمنى، كما لو كان يتحسس بها الفراغ.

"اللعنة على الديجافو، إنها تجعلني أجن".

مد الشيء يده ليقبض على محمود.. أغمض محمود عينيه، قبل أن يميل بجذعه إلى الأمام ليخرج مركز ثقله خارج قاعدة ارتكازه، ويترك

الباقي للجاذبية، التي عملت بكفاءة كالعادة، وفي اللحظة التالية، كان محمود يحلق في الفراغ ساقطا من الشرفة.. من الطابق السابع

***

كانت الشقة تزخر برجال الشرطة ورجال البحث الجنائي، حين دخل الرائد محمود والدكتور طارق بلهفة يبحثون بعيونهم داخل الشقة، وعلى أحد المقاعد بالصالة، كانت سارة جالسة تحتضن دميتها، التي لفتها بقطعة قماش، وأخذت تهزها بهدوء كما لو كانت طفلة رضيعة.

سارة، الأبنة الصغرى في العائلة، فتاة جميلة في السابعة من عمرها.

اقترب محمود من الفتاة، التي لم يبد عليها أنها رأته، واستمرت في هدهدة دميتها، فجلس أمامها محاولا جذب انتباهها، ثم وبصوت خافت قال:

– سارة.

لم يبد عليها أنها سمعته، ولم ترفع عينا إليه، في حين تبادل محمود النظرات مع طارق، قبل أن يعيد النداء مرة أخرى بصوت أعلى.. سارة يا صغيرتي هل تسمعيني؟

هزت سارة رأسها بالايجاب دون أن ترفع عينيها إلى محمود، الذي تابع:

– هل رأيتِ ما حدث هنا يا سارة؟

هزت سارة رأسها بالإيجاب مرة أخرى، فسألها بلهفة:

– مالذي حدث يا سارة؟ ما الذي أفزع عائلتك لهذه الدرجة؟

مطت شفتيها وهي تهز بكتفيها قائلة: لا أعرف.

أصابته خيبة الأمل، في حين نظر إليه طارق، كما لو كان يقول له دعني أحاول، فأشار له أن تفضل، فقال طارق بلهجة حانية:

– صغيرتي.. ألم تري شيئا غريبا أو سمعتِ شيئا؟

فكرت الصغيرة لحظة، ثم قالت باقتضاب: لا.

وكأنما فقدا الأمل في معرفة شيء من سارة، وهمّا بالتحدث مع بعضهما، عندما تمتمت سارة بصوت طفولي:

– لقد كانوا يصرخون بصوت عالٍ.. وهو لا يحب الصراخ، ويترعج من الصوت العالي.

بدت الدهشة على الاثنين، فالتفتا إلى سارة، وسألها محمود: من هذا؟ من تقصدين؟

رفعت سارة عيناها إلى محمود لأول مرة، وهي تقول ببساطة الطفولة، ما جمد أطراف محمود وطارق هذه المرة..

– الشيطان طبعا.. من غيره؟!

لا يوجد خطأ هنا هذه المرة.

لقد مر محمود بهذا الموقف من قبل.. ليس مرة واحدة، بل عدة مرات.

كان محمود واقفا على إفريز الشرفة، محاولا حفظ توازنه، يفكر في صوت السيارات العالي الذي غطى على صوت رجاله، الذين راح ذلك الشيء يسلخهم أحياء.

نعم، صراخ رجاله.. تبا! كيف لم ينتبه لهذا؟.. أن باب الشرفة من النوع المنزلق من الزجاج القوي المضاد للكسر.. والعازل للصوت.

ما الذي يحدث؟

فجأة، انقطع صراخ الرجال.. حانت منه التفاتة إلى الخلف، ليرى ذلك الشيء منشغلا في ذبح وتمزيق رجاله، الذين راحوا يصرخون.. ولكن صوتهم لم يعد يصل إليه. يبدو أن وظيفة عزل الصوت صارت تعمل بكفاءة الآن، بعدما اكتشف عقله هذا الخلل في سيناريو الأحداث.

هل هو حلم؟.. كابوس لا يستطيع الفكاك منه؟ كم يشعر بالخوف والبرد، ويكاد يسقط من حالق، لولا مجاهدته للاحتفاظ بتوازنه.. إنه يسمع ضجيج السيارات، ويشاهد رجاله يذبحون

ويمزقون.. مشاعر متعددة، وتفاصيل كثيرة، لا يمكن أن تختلق في حلم.

كان الشيء قد انتهى من تمزيق الرجل الأخير، فرفع عينيه إلى محمود بشراسة. أدار محمود ظهره للشيء الذي راح يتقدم نحو باب الشرفة..

"حسنا، فلنذهب مباشرة للّقطة الأخيرة.. فلو كان هذا كابوسا أو حقيقة فأنا أريده أن ينتهي الآن.

وفي اللحظة التالية، كان جسد محمود يحلق ساقطا من الشرفة..

من الطابق السابع.

***

لدقيقه، ظل محمود وطارق ينظرون إلى سارة عاجزين عن الرد، قبل أن ينفجر محمود في الضحك، فنظر إليه طارق مستنكرا، فقال محمود وهو يغالب ضحكاته:

– عذرا يا دكتور طارق، فلقد نسيت تماما أنها طفلة صغيرة، ونحن نقف كالحمقى منتظرين منها أن تحل لنا لغز القضية.

ثم ابتعد عن الفتاة وهو يتمتم بسخريه:

– شيطان!.. نعم بالتأكيد لم يفعلها أحد غير الشيطان.

قاطعه طارق قائلا:

– نعم يا سيادة الرائد، إنها طفلة، لذا يجب أن نجاريها حتى نخرج منها بمعلومة تفيدنا في هذا التحقيق.

قال محمود بنفاد صبر:

– تفضل جارِها كما تريد، أما أنا فلقد اكتفيت من هذا.

ابتسم طارق ابتسامة لطيفة وهو يتوجه بالحديث لسارة:

– إذا فالشيطان هو ما أفزعهم وأخافهم.

هزت سارة رأسها بالموافقة.. سألها طارق:

– وأنتِ، هل رأيت هذا الشيطان؟

جاءته هزة موافقة من رأس سارة فتابع:

– وأنت لم تخافي منه؟

هزت رأسها بالنفي، فعقد حاجبيه وهو يسأل:

– ولماذا لم تخافي منه؟

سكتت سارة ثوانٍ، قبل أن تجيب بهدوء:

– لأنه صديقي.

لا يعرف طارق ومحمود لماذا سرت تلك الرعشة في جسديهما.. فرغم اقتناعهما أن ما ترويه سارة لن يعدو خيال أطفال إلا أن شيئا في حديثها كان مرعبا.

همس محمود لطارق محاولا التغلب على توتره:

- هل سنظل طوال الوقت نستمع إلى أكاذيب طفلة يا دكتور طارق؟

كاد الدكتور طارق يجيبه بشيء ما، حين اعتدلت سارة، وقالت بصوت حاد:

- أنا لست كاذبة.

ضيق محمود حاجبيه بغضب، وهو يقول:

- بل أنت أكذب طفلة رأيتها طوال حياتي

احمر وجه سارة غضبا وهي تقول:

- قلت لك لست كاذبة.. هذا ما كانت عائلتي تقوله كلما حدثتهم عن صديقي، وفي النهاية لم أجد حلا سوى أن أريه لهم، ولكنهم خافوا وفزعوا واندفعوا مذعورين يلقون بأنفسهم من الشرفة.

ضيَّق محمود عينيه وقال:

- حسنا، أنا أتحداكِ أن تريني صديقك المزعوم هذا.

ثم اضاف في لهجة لاذعة: أيتها الكاذبة.

احمرت عينا سارة، وانتفخت أوداجها وهي تقول:

- حسنا.. لا تقل إني لم أحذرك.

ثم - وبهدوء - مدت يدها التي تحمل الدمية الملفوفة إلى محمود، وهي تتابع:

- ها هو ذا.

نظر محمود وطارق بغير فهم إلى ذلك الشيء الصغير، والتي حملته سارة على كفها الأيمن، ثم أزالت قطعة القماش التي تغطيه.

تراجعا في فزع، وتوقف الرجال عما يفعلون وهم يراقبون ذلك الشيء.

كان أبشع شيء رآه محمود في حياته..كائنًا لا يزيد طوله وحجمه عن حجم دمية صغيرة، يشبه إلى حد كبير قرد بشع الخلقة، ومن رأسه الصغيرة خرج قرنان دقيقان، وأيدٍ وأرجلٌ مخلبية، وجسد مشعر، وذيل طويل.. كان شيطانا، كما تخيلته أبشع خيالات البشر

كان كائنا حيا وليس دمية.. كائنا يتحرك، راح يدير عينيه في الوجوه المحيطة به بفضول. وبهدوء، أنزلته سارة على الأرض، وابتعدت عنه قليلا. وأمام عيون الرجال الذاهلة، وخلافا لكل قوانين الطبيعة، راح ذلك الشيء يكبر ويتضخم.. وفي لحظات، أصبح في حجم غوريلا ضخمة تكاد رأسه أن تلمس سقف غرفة المعيشة.

تراجع الرجال، في حين أخرج محمود سلاحه وصوبه تجاه ذلك الشيء، وتبعه على ذلك رجاله الذين ملأ الذعر نفوسهم، فراحوا يجيئون ويذهبون في الشقة على غير هدى، في محاولة لحصار ذلك الشيء.

تحول صوت محمود إلى صراخ وهو يسأل طارق:

– ما هذا الشيء بالضبط يا دكتور طارق؟

لكن وجه طارق كان قد شحب حتى حاكى وجوه الموتى، وقال:

– لا أعرف.. إن هذا يخالف كل قوانين الطبيعة، ويتعارض مع ثوابت العلم.

ثم أخذ نفسا وهو يقول: لا تفسير لدي إلا الوهم.

التفت إليه محمود باستنكار، ويده لا تزال مصوبة المسدس إلى الشيء، وقال صارخا:

– وهم!.. أي وهم؟ إن هذا الشيء حقيقي جدا، لا يمكن أن تكون هذه مجرد خدعة.

ضحكت سارة.. تراقبهم واقفة بعيدا وهي تضحك بجزل طفولي، ثم قالت:

– لقد قلت لكم ولكنكم لم تصدقوني.

قال طارق وقد بدأ يفهم:

- نعم فهمت.. هذا وهم، والطاقة التي تبعث هذا الوهم في عقولنا ليست نابعه من الشقة.. وإنما نابعة من هذه الطفلة.. إنها تسيطر على عقولنا، وتوهمنا بوجود هذا الشيء.

كان الشيء حتى الآن واقفا وسط الغرفة، وهو يراقب بعينين ملؤهما الفضول، ويتابع باستمتاع هذه المناقشات، ولم يبد عليه أنه يهتم بكل هذه الأسلحة المصوبة إليه، نظراته المستفزة تدمر أعصاب الرجال، التي أصبحت مثل الوتر المشدود.. لا أحد يعلم من الذي أطلق الرصاصة الأولى؛ ولكن دويها كان بمثابة إشارة البدء.

في اللحظة التالية كانت غرفة المعيشة قد تحولت لساحة حرب.. انطلقت جميع الأسلحة مستهدفة ذلك الشيء. واستمر إطلاق النار لثلاثين ثانية، أطلق خلالها عشرات الرصاصات، حتى نفدت الذخيرة من خزانات الأسلحة. كانت الأدخنة المتخلفة عن احتراق البارود قد صنعت غلالة رقيقة من الدخان، راحت تعلو قرب سقف الغرفة. أما الكائن، فلم يبد عليه أن الأمر يعنيه.. لقد أصابته الرصاصات، ولكن لا شيء حدث.. لقد بدا كما لو كان جسده قد احتوى الرصاص، واحتجزه بداخله.

قال طارق بأنفاس منبهرة: كما قلت إنه وهم.. صورة لا حياة فيها، لا أكثر وإلا لأبدى أي رد فعل حيال هذا الهجوم.

التفت إلى محمود، ليجده شاحب الوجه ينظر إلى شيء ما خلف الشيء.. نظر طارق حيث ينظر محمود، ثم بهت وجف لعابه وأحس بالفزع. لقد كانت سارة الطفلة الصغيرة، ذات السبع سنوات، ممددة على الأرض غارقة في دمائها.. أحد الطلقات قد أصابتها، لتلقى مصرعها في الحال. صرخ بصوت مبحوح:

- يا إلهي.. لقد قتلتم طفلة صغيرة.. يا إلهي.

ويبدو أن الشيء قد فهم ما قاله الدكتور، فالتفت إلى الخلف بغضب، ليجد سارة مضرجة في دمائها.. وهنا انفجر.. انفجرت صرخاته المدوية، كما لو كان وحشا فجع بقتل أبنائه.. التفت إلى الرجال بعينيه، التي تحولت إلى اللون الأحمر القاني، وعلى وجهه ارتسمت أعتى علامات الغضب والشراسة.

تراجع محمود إلى الخلف وهو يتساءل بذعر:

- إذا كانت الفتاة هي مصدر هذا الوهم يا دكتور، فالفتاة قد ماتت.. إذا فما هذا بالضبط؟

رد طارق الذي أصبح الآن لا يفهم شيئا من شدة رعبه:

- لا أدري!.. ولكن هذا ليس وهمًا.. ليس وهمًا على الإطلاق.

في اللحظة التالية انقض الشيء.. لا يمكن للكلمات أن تصف بالضبط ما حدث في غرفة المعيشة تلك الليلة.. كان الشيء ينقض

على الرجل يطيح برأسه بضربة واحدة، أو يهوي بأنيابه على الأعناق ليحتزها، وراحت مخالبه تقتلع الجلود من على أجساد أصحابها، بلا هوادة أو رحمة.

راح الرجال يحاولون الفرار، ولكن هيهات.. لقد كان ذلك الشيء يقطع عليهم طريق الهروب، وكان يتحرك بسرعة خاطفة لم تعطِ لأحد أي فرصة للاستنجاد.

استمر محمود يتراجع في ذعر، وهو يرى رجاله يتساقطون أشلاء واحدًا بعد الآخر.. فجأة اصطدم ظهره بباب الشرفة الزجاجي التفت إليه.. قام بفتحه بسرعة.. خرج إلى الشرفة.. رأى الدكتور طارق يحاول الوصول إليه، ولكنه أغلق باب الشرفة خلفه بإحكام..

"آسف يا دكتور طارق، ولكني بحاجة لكل لحظة الآن، وسأحتاجك لتعطيل هذا الشيء بعض الوقت".

راح طارق يطرق باب الشرفة ذا الزجاج المضاد للكسر، ولكن هيهات؛ فمن خلفه امتدت تلك اليد المخلبية، التي أحاطت بعنقه، لتنتزعه من أمام الباب إلى الوحش، الذي راح يمارس مهمته الدامية، بينما محمود يجول بنظراته في كل مكان باحثا عن وسيله للهرب.. ولكن البناية لا تلاصقها بنايات أخرى. بد الأمر واضحًا.. لا يوجد أي مهرب.. والباب الزجاجي لن يوقف الشيء الذي شارفت مهمته

على الاكتمال. هل هذه هي النهاية؟ إذا كنت ستموت، فلا تجعل ميتتك بتلك الطريقة البشعة.

رفع مسدسه أمام وجهه، وأخذ يتفحصه بسرعة.. لقد نفدت ذخيرته ولم يعد ذا جدوى.

ألقى بمسدسه، ثم نظر من الشرفة إلى الشارع، الذي يبدو بعيدا من هذا الارتفاع.. فكر لثانية، ثم حسم أمره.. صعد على الإفريز، ونظر إلى ما أسفل قدمه.

الآن لم يعد لديه ذرة من الشك.

الآن أصبح شكه يقينًا.

هناك من يعبث به.. أو بالأصح يعبث بعقله.

نظر إلى الخلف، إلى الشيء الذي انتهى من آخر ضحاياه، ثم اتجه إلى باب الشرفة، ورفع يده المخلبية ليهوي عليه، ليتحطم بصوت مكتوم.

نعم، نفس الشيء.. دائما نفس الشيء.. ودائما نفس النهاية.

اقترب الشيء من محمود مادا يده إليه.

مد محمود رجله اليمنى، وكأنما يتحسس بها الفراغ، ثم..

قفز.

ولكنه لم يقفز إلى الخارج هذه المرة..

لقد قفز عائدا مرة أخرى إلى الشرفة، ووقف باعتداد يواجه ذلك الشيء، الذي توقف بدوره، كما لو أنه فوجئ بتلك الخطوة من محمود.

وبهدوء عجيب وثقة متناهية، قال محمود:

– ألم يحن الوقت بعد لتواجهني وجها لوجه؟

أحس محمود أن كل شيء قد تجمد.. الشيء، السيارات المارة، حتى هواء الليل البارد!.. في اللحظة التالية، بدأ كل شيء يهتز ويتموج، ثم راح ينهار كما لو كان من رمال ناعمة هشة، تذروها رياح عاصفة.. المباني والشوارع والشرفة كل شيء راح يتناثر في زوبعة الرمال تلك، ثم راحت تتشكل مرة أخرى، كما لو كانت تعيد بناء المنظومة بالكامل.

محمود الآن واقف في قاعة واسعة، امتلأت بالمناضد، التي استلقت عليها عشرات الجثث الآدمية.. ملابسه الرسمية راحت تذوب وتتبدل لتصبح معطفا أبيض، حوى بطاقة تعريف صغيرة كتب عليها دكتور/محمود كل شيء تغير، إلا ذلك الشيء الذي ظل واقفا أمامه على بعد خطوة واحدة، ولا زال في ذات الوضعية، مادا يده، كما لو كان يحاول القبض عليه.

– ألم تكتفي من هذا العبث بعد؟

بدأت صورة الشيء تتغير، كما لو كانت صورة يتم تغيرها بأحد خدع برامج الجرافيك، ليتحول ذلك المسخ إلى شخص باسم هادئ الملامح؛ كان هو نفسه الدكتور طارق. عقد محمود حاجبيه وهو يسأل:

– أهو أنت؟

ابتسم طارق وهو يقول:

– بالطبع إنه أنا.. لقد أثبت أنك ذو عقلية فريدة يا محمود.. عقلية لم أقابل مثلها من قبل.. أنت أول شخص يجبرني على تغيير السيناريو؛ لهذا وجدت أنه من اللائق أن أشرح لك الأمر بنفسي، فأنت تستحق ذلك.

بدت الصرامة على وجه محمود، وهو يحاول التركيز في كلمات طارق، الذي ابتسم قائلا: هل تعلم من أنت يا سيد محمود؟

لم يحر جوابًا، فتابع طارق: بالطبع أنت لن تستطيع التذكر، لأننا محونا ذكرياتك، وأفرغنا شخصيتك، فأصبحت ما نريده نحن.. الرائد محمود، أو الدكتور محمود، أو أي شيء نريده؛ فلقد أصبحت فارغا يا عزيزي.

سأشرح لك الأمر.. أنت تعلم بالطبع أن القانون يعاقب على الجرائم كل جريمة على حدة، فلو أنك سرقت مرة، فسيحكم عليك مرة، ولو سرقت مرتين فسيحكم عليك مرتين، وهكذا في كل الجرائم. أما القتل، فله وضع خاص، حيث إنك لا تستطيع أن تحكم على القاتل بالإعدام إلا مرة واحدة فقط، حتى لو قتل ألف نفس.

ولكن ذلك لم يكن ليشفي غليل عشرات الأسر من أهالي الضحايا، والذين تمنوا لو ينتقموا من القاتل ألف مرة. من هنا نبعت الفكرة.. فكرة عقوبة الإعدام رعبًا.

بدت الدهشة على محمود، في حين تابع طارق:

- لقد كان مبتكر تلك الطريقة عالمًا اكتوى قلبه هو أيضا بفقد ولده على يد سفاح، قتل العشرات وحكم عليه بالإعدام مرة. لذلك عكف على هذا الابتكار. هنا، يتم معاقبة المجرمين فوق العادة، الذين ارتكبوا جرائم لا يمكن أن ينساها المجتمع. نحن نقوم بتفريغ المجرم من ذكرياته ومشاعره، ثم نقوم بملئه بما نريد، ثم نضعه في سيناريو.. بالطبع سيناريو مرعب، تم إعداده بدقة، بناءً على دراسة الشخصية، التي يتم ملء المجرم بها،ودراسة سلوكه وتصرفاته. يقوم هذا السيناريو على وضع الشخص في موقف مرعب لا مفر منه إلا بالانتحار، فيكون المجرم هو قاتل نفسه بنفسه، ليتجرع نفس الكأس التي طالما سقى منها ضحاياه.

لكننا نحرص على أن يتجرع رعب وآلام الموت دون الوصول إلى الموت ذاته، ثم ما يلبث البرنامج أن يقوم بمحو ذاكرته، وإعادة وتكرار السيناريو مرة أخرى.. وهكذا.

وإذا علمت أن أطول سيناريو لا يستغرق في الحقيقة أكثر من أربع ثوانٍ، فهذا يعني أنك ستتجرع الموت كل يوم ألف مرة؛ ولأكن دقيقا، **21600** مرة كل يوم.

لك أن تتخيل مقدار الرعب والهلع الذي يتعرض له قلب المجرم، الذي ينهار في النهاية، مهما كانت صلابته وبرودة أعصابه.

أخذ محمود يستوعب تلك المعلومات، وهو يتساءل: وأنا.. ما الذي فعلته؟

قال طارق: منذ خمس سنوات، ظهر قاتل متسلسل، أثار الرعب والذعر في الدولة طول تلك الفترة. لم يكن هناك أسبوع يمر دون جريمة قتل، وخصوصا النساء والأطفال. كانت الجرائم أبشع من أن يرتكبها إنسان، وكان هذا السفاح يتمتع بذكاء خارق للمألوف. لقد تلاعب بالشرطة طوال تلك المدة، وعندما اكتشف أمره في النهاية، تكبدت الشرطة عشرات القتلى للقبض عليه، لذا فقد أطلق الناس على هذا السفاح اسم.. الشيطان!

إنه أنت يا سيد محمود.. ولي الشرف أن أكون جلادك.. أقصد مبرمج هذا السيناريو الذي تعيشه.

ابتسم وهو يقول: كما قلت سابقا، أنا لم أر شخصا استطاع الخروج من سيناريو أقوم ببرمجته.. ولكن يبدو أنك عقلية مختلفة فريدة.

عموما، لا يهم.. سيتم الآن محو ذاكرتك، وملؤها بهذه الشخصية، والانتقال للسيناريو البديل.

حظًا طيبا مع الموتى الأحياء.

كان محمود يستمع لكل هذا صامتا لا يعلق.. رفع عينيه إلى طارق، وقال بهدوء: وهل سأتذكر حديثنا هذا؟

رد طارق: لا.. سيتم محوه مع ذاكرة الرائد محمود، وعندما ينتهي حديثنا، ستنخرط في شخصيتك الجديدة.

ارتسمت ابتسامة على شفتي محمود، وهو يقول بصوت كأنما يأتي من بئر عميق:

- انتظرني يا سيد طارق، وصدقني فلن يدوم انتظارك طويلا، سنلتقي مجددا، ولكن هذه المرة ستكون في الواقع.. وساعتها سيكون لنا حوار آخر.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي طارق وهو يقول:

- حظًا طيبًا مع المستحيل.

في اللحظة التالية، اختفى طارق.. نفض محمود رأسه وهو يقول لنفسه:

"هل سمعت صوتا ما؟"

هز رأسه وهو يقول: "أي صوت يا محمود، إنها مشرحة لا تحوي إلا الجثث".

تقدم من أحد المناضد، وتناول التقرير المرفق مع الجثة، وأخذ يقرأه.. إنه ضابط شرطة، انتحر قفزا من الطابق السابع.. ترى لم؟.. مط شفتيه، قبل أن يمد يده ليأخذ المبضع من طاولة الأدوات، ثم كشف الجثة..

وابتدأ العمل!

***

نظر طارق من خلف زجاج الغرفة إلى جسد محمود المسجى، والذي راحت عشرات الأسلاك تتصل به، وراحت تنقل انفعالاته ووظائفه الحيوية إلى الأجهزة، في حين راحت جفونه تتحرك تلك الحركة السريعة والتي تدل على أن صاحبها يحلم.. ولكنها كانت مستمرة دون انقطاع.

التفت إلى مساعدته متسائلا: هل كل شيء على ما يرام؟

أجابته: نعم يا سيدي.. إنه يقتل نفسه كل أربع ثوانٍ بانتظام منذ ما يزيد عن الساعة.. ولكن...

سألها بسرعه: ولكن ماذا؟

اجابته: هناك شيء غريب في هذا الرجل.. إنه يتعرض لموقف مرعب قتل فيه نفسه حوالي **900** مرة؛ ولكن وعلى الرغم من هذا، فإشاراته الحيوية منتظمة للغاية.. دقات قلبه منتظمة ضغط دمه طبيعي.. إنه يبدو كما لو كان...

خانتها الكلمات، فجمعت أفكارها وهي تقول: كما لو كان يمر بحلم جميل وليس كابوسًا قاتلا.

بدت الدهشة على طارق، وعاد ينظر إلى محمود، الذي راح في سبات عميق.. وفي ذهنه تذكر كلمات محمود الأخيرة.

"سنلتقي مجددا، ولكن هذه المرة ستكون في الواقع.. وساعتها سيكون لنا حوار آخر"

وبالرغم من ثقته فيما يفعل، وبالرغم من ثقته من استحالة خروج محمود من تلك الغيبوبة، إلا أنه لم يستطع أن يمنع تلك الرجفة التي سرت في بدنه..

رجفة الرعب

***

كان محمود يتراجع بذعر إلى ركن القاعة، في حين راحت أجساد الموتى التي قامت من على مناضد الفحص تحاصره من كل جانب.. رفع المبضع أمام وجهه، وراح يوجه بضع ضربات للجثث، التي راحت تتقدم منه، كأنما لم يحدث لها شيء.

اقتربت الجثث.. مدت أيديها نحوه.. واستعدت للانقضاض الأخير. لم يعد أمام محمود مهرب، لا منجى من هذه الميتة البشعة إلا إذا.. ثم وبيد مرتجفة، رفع المبضع إلى عنقه، وأغمض عينيه.. ثم غرس نصل المبضع في جنب عنقه من الناحية اليسرى.

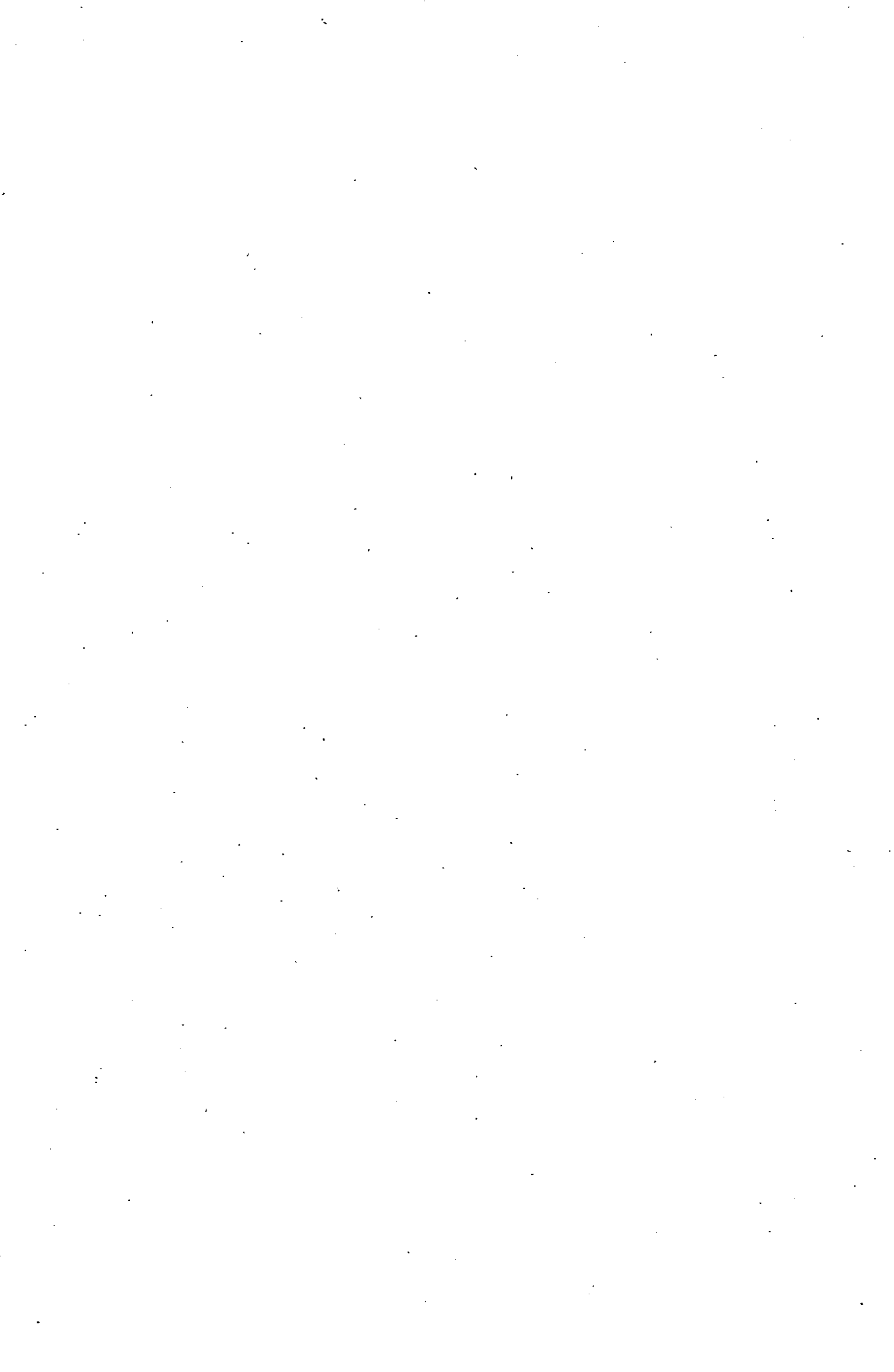
ورغم أنه يبدو مرتعبا، إلا أن عقله في تلك اللحظة كان هادئا جدا، في رأسه ترددت الأفكار.

حسنا، سأسايرك في لعبتك يا طارق، حتى أجد ثغره.. ثغرة واحدة تمكنني من الخروج من هنا.. وساعتها..

ورغم أن يده راحت تحرك المبضع من الطرف الأيسر إلى الطرف الأيمن، قاطعًا في طريقه الأوردة والقصبة الهوائية.. إلا أن فمه في تلك اللحظة ارتسمت عليه ابتسامة..

ابتسامة شيطان.

القنّاص



أسند بندقيته على حافة السور الحديدي، بأعلى ذلك البرج السكني، الذي يرتفع لأكثر من عشرين طابقا بشارع فرانكلين في بالتيمور. أخذ يحكم تثبيت حامل البندقية جيدا، ويقوم بالروتين المعتاد من التأكد من نقاء الرؤية في المنظار المقرب وزاوية التصويب، كما تأكد تماما أن أحدا لا يستطيع رؤيته في مكانه هذا.

موقعه مميز للغاية، يكشف له الشارع الرئيسي في بالتيمور، وكذلك الشوارع الجانبية المتفرعة منه بوضوح تام، وفي نفس الوقت يخفيه هو عن العيون، ويجعل من الصعوبة بمكان معرفة مكان انطلاق الرصاصة حين يجد الجد.

أخذ يحشو بندقيته على مهل، وبتمرس، وهو ينظر بتفحص إلى الشارع الكبير الذي يمتلئ بالبشر رائحين وغادين. لن يمر كثير وقت حتى يظفر بضحية مناسبة، فهؤلاء الرعاع يملؤون شوارع أمريكا مثل الجراد.

لم يكن ينتظر شخصا بعينه، بل إن شئت قل هوية بعينها. يترقب رؤية أي مسلم يجوب الشارع حتى يقتنصه.. بالطبع هو لا يخمن، بل هو ينتقي من يبدو على سمته أنه مسلم يفتخر بالمظاهر الإسلامية القبيحة.. لحية شعثاء، أو جلباب، أو عقالا بدويا، أو امرأة ترتدي حجابا.. فهي صفات شخصية للمسلمين المتخلفين، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأمم.

لماذا يريد فعل ذلك؟ الإجابة واضحة، فلابد لأحد ما أن يقوم بتنظيف أمريكا من دنس هؤلاء الإرهابيين.. كيف يغمض لإنسان جفن وهو يعلم أن شوارع مدينته مرتعا لهؤلاء؟ إنه يعرفهم جيدا، ويعرف ضررهم على الإنسانية.. أحد أقاربه مات في تفجيرات 11 / 9 ثم بعد ذلك فقد ابنا في أفغانستان. لكم يمقت هؤلاء القوم.. كيف لا تتكاتف دول العالم للقضاء عليهم على اعتبار أنهم وباء أشد فتكا من الكوليرا أو التيفوس؟

عموما لا بأس، لقد قرر أن يكون هو الدواء الشافي من الكوليرا والمحرقة المهلكة لهذا التيفوس. ولكن هل يستطيع وحده هذا؟ لا يهم سيبدأ بنفسه وهو واثق أن رسالته ستصل لغيره وغيره وغيره.. اليوم سيبدأ منفردا، ولكن من يعلم ربما انضم الآلاف والملايين إليه غدا.

لقد اشترى هذه البندقية بكل ما كان لديه من مدخرات، وتدرب كثيرا على استخدامها، حتى صار ثابت اليد والجنان، لا تخطئ

رصاصته هدفها. واليوم هو أول اختبار عملي لمهارته وأول صيد فعلي له، بعد شهور طوال من التدريب المتواصل. اليوم سيشعل فتيل القنبلة التي ستنفجر في وجه كل مسلم في أمريكا.

وفي صبر وأناة، راح يتفحص المارة في الشارع منتظرا اللحظة المرتقبة.. هو يعلم أن اللحظة قد تطول لساعات أو ربما لا تأتي اليوم، ولكن لا يهم، فالصبر هو الطريق ولا بأس في القليل منه.

راح عقله يتذكر كل لحظات حياته التي قضاها مع ابنه، منذ أن ولد وحتى طرق مندوب وزارة الدفاع باب بيته، ليسلمه ورقة كتب فيها أن ابنه قد أدى واجبه بشجاعة لخدمة العلم الأمريكي، ومات شهيدا تحت رايته، وأن أمريكا كلها لن تنساه كما لم تنس أيا من العظماء الذين ماتوا من أجلها.

غلت الدماء في عروقه عند هذا الخاطر، وكاد إصبعه يعتصر زناد بندقيته، ولكنه هدأ من روع نفسه قائلا: اهدأ اهدأ.. إياك أن يدفعك غضبك للخطأ، فتصيب إنسانا بريئا.. لن تستطيع أن تحيا أو تنام، لو تلطخت يداك بدماء إنسان.

كانت مفارقة مضحكة تلك التي تدور داخل نفسه، فهو يتلهف لقتل أي مسلم يراه الآن، وخائف أن يصيب أي إنسان بالخطأ، ولكن ما يزيل هذا التعارض أنه لا يعتبر المسلمين بشرا.. بل هم أدنى منزلة من الحشرات. لا جناح عليه إن أراق دماءهم أنهارا. إنه بطل أمريكا

المرتقب.. الرجل الذي أخرج ما في صدر كل أمريكي مخلص، وحوله إلى أمر عملي واقعي.. يجب أن يمنح نوط الشجاعة على هذه الخدمة الجليلة التي يؤديها لوطنه.

انتزعه من افكاره ذلك الرجل الذي ظهر في مرمى عدسة البندقية، يرتدي معطفا طويلا وله لحية كثة، ويحتضن كتابًا بيده. دق قلبه متسارعا.. يبدو أن اللحظة قد حانت.. ولكن مهلا إن المسلمين لا يرتدون القبعات الأوربية الطراز، ولا يجدلون شعور سوالفهم ويرسلونها فوق الأذان بهذه الطريقة.

ارتعشت يده، وهو يبعد إصبعه بسرعة عن الزناد ويتنفس برهبة..

– يا إلهي! لقد كدت أن أقتل هذا الحاخام اليهودي دون قصد.. حمدا لله؛ لم أكن لأسامح نفسي لو فعلت هذا.

اليهود مثل وقدوة يحتذى بها في التعامل مع هؤلاء الهمج.. لكم دافع عما يرتكبه الإسرائيليون ضد الفلسطينين، فلا حل لعلاج هذه الأزمة إلا علاجهم الناجع.. المسلم الجيد هو المسلم الميت.

يتذكر حين رأى صورة طفلة صغيرة، لم تكمل عامها الأول، في مسيرة احتجاجية لفلسطينيين، وقد اخترقت رصاصة بطنها الصغيرة، فماتت المسكينة، وإن بدت في الصورة كملاك نائم.. تدافعت الدموع إلى مقلتيه، وكاد يبكي ألما على هذه المسكينة ويتساءل أي حيوان يمكن أن يفعل هذا.. ولكن نظرة واحدة إلى السطر المكتوب

تحت الصورة جمد الدموع في عينيه ((الطفلة الفلسطينية إيمان حجو، قتلت برصاصة إسرائيلية)).

ساعتها كفكف دموعه، وأشاح بوجهه بعيدا وهو يقول باشمئزاز:

– حسنا فعل من قتلها، فخير لك أن تقتل الثعبان صغيرا، بدلا من أن تنتظر أن يتغير حاله إذا كبر.

قطعت خواطره لحية أخرى ضخمة، لرجل ضخم الجثة، يغطي رأسه بشيء ما.. إنه أحدهم هذه المرة.. أسرع إصبعه إلى الزناد، ولكن مهلا.. المسلمين لا يملئون جسدهم بالوشم، ولا يثقبون آذانهم وشفاههم لوضع الحلقات المعدنية.. ثم إن هذا الضخم يحيط وسط فتاة ترتدي ما لا يذكر، وجسدها يتغطى هو الآخر بالوشوم، وغطاء الرأس هذا ما هو إلا عصابة أمريكية الطابع التي يطلق عليها (باندانا).

رفع عينه عن المنظار، ووضع وجهه بين كفيه، محاولا استعادة تركيزه.

– يا إلهي! لقد كدت أقتل إنسانا بريئا.. هل أصبح الكل الآن يطلقون اللحى ويغطون رؤسهم؟ أي جنون هذا؟!

مسح وجهه بكفه، ثم أعاد النظر إلى الطريق متفحصا العابرين.. لكم تشتعل ضلوعه نارا، ويتحرق شوقا لزرع رصاصة في صدر

مسلم. يتذكر بعد أحداث البرجين، حين صار الإسلام هو الشغل الشاغل للقنوات التليفزيونية..قنوات تدرس، وقنوات تحلل، وقنوات تتهم، وقنوات تزدري.. صار الإسلام هو شغل أمريكا الشاغل. يتذكر كل ما قيل عن الإسلام والقرآن (دين الكراهية والكتاب المحرض على الإرهاب) يتذكر كل ما قيل عن المسلمين (أتباع الشيطان وأعداء الحضارة الإنسانية المتخلفين البرابرة).

ها هو ذا هدف جديد يظهر.. لكن لا مجال للخطأ هذه المرة.. إنهما امرأتان توليانه ظهريهما وتمشيان بتؤدة، يلبسن جلابيب ساترة طويلة سوداء، ويغطين رؤوسهن بحجاب أسود يصل إلى منتصف الظهر. لا مجال للشك أنهما مسلمتان.

ارتجفت أصابعه بنشوة، وهو يهم بتسديد رصاصاته القاتلة.. كان ذلك حين لفت نظر إحدى المرأتين شيء ما في فاترينة أحد المحلات، فتوقفت وأشارت لزميلتها نحو هذا الشيء. للحظة، رأى القناص وجهها، وميز الإطار الأبيض الداخلي لحجابها الأسود، والذي يستر جوانب وجهها ورقبتها وفتحة جيبها بصدرية بيضاء، يتدلى عليها سلسلة، علق فيها صليب فضي.. إنهن راهبات كاثوليك.

لم تعد أعصابه تتحمل.. كاد يفقد وعيه من شدة توتره، وارتجفت يداه، فكادت أن تسقط البندقية. للمرة الثالثة في دقائق معدودة، كاد أن يقتل ثلاثة أبرياء..

- ما الذي يحدث؟ كنت أظن أن مظاهر اللحى والجلابيب والحجاب هي صفات إسلامية، لا يشاركهم فيها أي أمة من الأمم..

بالطبع هو يعلم أن هذا غير صحيح، ولكن متابعته للحملة الإعلامية على الإسلام زرعت في نفسه يقينا أن مظاهر (التخلف) تلك هي حكر على المتخلفين العرب والمسلمين.

ظل قرابة الدقيقة يحاول السيطرة على رجفة يديه، ثم قام متثاقلا، وأعاد النظر عبر المنظار المقرب. ألا يوجد مسلمون اليوم؟ هل اختفوا من بالتيمور كلها؟ اللعنة على هذا الحظ.

ولكن يبدو أن الحظ بدأ يبتسم له، حين توقفت سيارة أجرة صفراء اللون على جانب الطريق، ونزل سائقها واتجه ناحية أحد المحال لشراء شئ ما. خفق قلبه وهو يرى السائق.. كان مسلما جدا لو أردت الدقة.. باكستاني أو هندي أو... أفغاني.

يا إلهي! إنه أفغاني.. غالبا ذلك الثوب الطويل الذي يصل إلى الركبة، والسروال المتسع أسفل منه، واللحية التي لم تكن شعثاء، وطاقية رأس بيضاء..

- هذا السائق مسلم 100 % إذا أردت الدقة دون أي نسبة خطأ.. وأفغاني بنسبة 50% إذا أردنا الدقة. أي حظ حسن هذا الذي ابتسم لي؟ مسلم وأفغاني أيضا..

هو لم ينس أن الأفغان هم من قتلوا ولده، أثناء مهمته هناك لتحريرهم ونشر الديموقراطية فيهم، فما كان جزاء إحسانه إليهم إلا قتله.

دلف السائق في تلك اللحظة إلى المحل، فعض القناص على شفتيه غيظا، ولكنه صبر نفسه قائلا:

– لا بأس.. ما هي إلا دقائق ويخرج، وساعتها ستستقر رصاصتي في قلبه.

أخذ يدور بمنظاره في المنطقة المحيطة بالمحل، ليرى إن كان للمحل باب آخر أم لا؛ ولكنه تنبه إلى غبائه قائلا.. حتى لو خرج من باب آخر أيها الغبي، فلابد أن يرجع إلى سيارته.

ركز منظاره على السيارة الأجرة، منتظرا سائقها ليعود.

فجأة، لفت انتباهه حركة غريبة تدور في الشارع الضيق المواجه للعربة، فركز منظار البندقية عليه، ليجد ثلاثة رجال يقتادون امرأة شابة من الطريق إلى الشارع الجانبي، حاملين المدي القبيحة، وألصقوها إلى جدار، واختطف أحدهم حقيبتها وأفرغها على الأرض ليرى محتوياتها.

– يا إلهي! إنها عملية سرقة بالإكراه.. أرجو أن تنتهي سريعا؛ فليأخذوا أي شيء ويتركوا تلك المسكينة لحالها.

انحنى أحد الثلاثة يعبث بمحتوياها، فأخذ حافظة النقود وتفحصها ثم دسها في جيبه، وأخذ هاتفها المحمول، وشيئا أو اثنين آخرين، ثم أشار إلى زملائه أنه قد انتهى.

– حمدا لله، سيتركونها الآن. ولكن مهلا.. ياللمصيبة! إن حركات هؤلاء الثلاثة لا تريحني.. أحدهم مد يده يتحسس جسدها، والآخر يحاول تقبيلها عنوة.. يا إلهي! إنها محاولة اغتصاب.

راحت المسكينة تستنجد وتستغيث وهي تقاومهم باكية، ولكنهم لم يكونوا بشرا يحملون أي قدر من الإنسانية. راح أحدهم يمزق ملابسها بعنف، وهي تصرخ مستغيثة.. نظر إلى الشارع الرئيسي، عل أحد قد لاحظ هذا.. ولعجبه، رأى بعض المارة قد شاهدوا ما يحدث في الشارع الجانبي، ولكنهم كانوا يعودون بوجوههم بسرعة، منكسين أعينهم على الأرض، ويسرعون الخطى بعيدا عن هذا المنظر.. أيها الجبناء ساعدوها، أو حتى اطلبوا لها النجدة.. نعم النجدة.. أخرج بسرعة هاتفه المحمول، وطلب بسرعة رقم الطوارئ 911 ودار بخاطره في تلك اللحظة أن من سخرية القدر أن حادث البرجين كان يوم 11 / 9 والمعروف بحادث 911.. هل هذه مصادفة؟.. نفض عن رأسه ذلك الخاطر السخيف، وهو يعود بعينه إلى منظاره، مراقبا الوضع والهاتف على أذنه يرن.

كان المجرمون الثلاثة يشهرون المدي بشراسة في وجه الفتاة، ويبدو أنها قاومتهم بضراوة، حتى أنهم يهددونها بالقتل إن قاومتهم أكثر. لا يزال الجبناء يتحاشون النظر إلى الطريق الجانبي، ويسرعون الخطا، علّ ضمائرهم لا توبخهم إن هم لم يروا شيئا.

الرنين يتواصل، ولا أحد يرد.. ثم أتته رسالة الكترونية بصوت أنثوي يقول: جميع خطوط الخدمة مشغولة، نرجو الانتظار قليلا.

اللعنة كل الخطوط مشغولة.. هل تحولت أمريكا لساحة حرب، حتى تصبح كل خطوط الطوارئ مشغولة؟.. المسكينة تحاول المقاومة في خوف من المدي، ووجهها تغطى بدموعها، ولكن دون رحمة هم يستمرون في تمزيق ملابسها.

إنهم في مجال إصابته، وبإمكانه إصابتهم بسهولة إن هو اراد.. ولكن لا.. لا يستطيع أن يقتل إنسانا مهما كان، وهو يخشى إن حاول إصابتهم في أرجلهم أن ترتجف يده وتصيب أحدهم في مقتل.. يا إلهي! ماذا أفعل؟

وفجأة، ظهر كأنما أتى من العدم.

لا لم يكن باتمان، ولا أي من رجال القصص المصورة الخارقين.. لقد كان إنسانا من لحم ودم، انقض على الرجال الثلاثة كالإعصار، دون خوف من أسلحتهم ولا عددهم. إنه هو.. السائق الذي نسي أمره في غمرة هلعه على الفتاة المسكينة.

كان الرجل ينهال على الثلاثة بفدائية، ويبدو أن الثلاثة لم يتوقعوا شيئا كهذا، فبدا عليهم الارتباك وتراجعوا أمامه لثوانٍ، كانت كفيلة بأن يحول فيها الرجل بينهم وبين الفتاة بجسده، ويصرخ فيها بشيء ما، ويشير إلى الطريق الرئيسي.. رسالة واضحة لا تحتاج لكثير فهم. ولم تكذب الفتاة خبرا، بل انطلقت لا تلوي على شيء، وكأن شياطين الأرض تطاردها..

- حمدا لله، لقد نجت.. ولكن هذا الاحمق لم يفر معها! يقف كالطود يواجه الرجال الثلاثة؛ هل يحسب أنه سينتصر عليهم؟ لماذا لا يفر؟ نعم نعم فهمت.. إنه يمنح الفتاة وقتا حتى تصل إلى بر الأمان.

استوعب الرجال الثلاثة المفاجأة، وتحول ذهولهم إلى غضب هادر، وهم ينقضون عليه مشهرين أسلحتهم. لم يتراجع خطوة، لقد ألقى بنفسه وسطهم وهو يكيل لهم الضربات.. جرحه أحدهم في ذراعه، والآخر في كتفه، وغرس الثالث مديته في ظهره، ولكنه لم يهن أو يضعف، بل ازداد شراسة كنمر جريح، حتى دب الذعر في قلوب الرجال الذين أغرقت الدماء وجوههم من عنف ضربات الرجل، فأجمعوا أمرهم ثم انطلقوا هاربين من وجهه. توقف هو لثوانٍ ينظر إليهم وهم يولون الأدبار، ثم تراجع قليلا، ثم سقط جالسا مسنداً ظهره إلى الجدار.. كانت ملابسه غارقة في دمائه التي تنزف من جروح جسده العديدة، فلم يعد قادرا على القيام أو حتى الاستنجاد

بأحد.. والغريب، أن الجبناء ظلوا على حالهم.. إشاحة الوجوه والإسراع في المشي مبتعدين.

أخيرا أتاه صوت عبر الهاتف يقول: **911** مع سيادتك بماذا نستطيع أن نخدمك؟

انتبه أن الهاتف لا زال على أذنه.. لقد كان يطلب النجدة من أجل الفتاة.. لو انتظرت حتى تأتيها النجدة فالنتيجة معروفة. تحشرجت الكلمات في حلقه، وهو يقول وعيناه مصوبة على السائق الذي أغمض عينيه وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة راحة:

– أريد سيارة إسعاف بسرعة، هناك رجل جريح.

أملاهم العنوان، وهو مستمر في متابعة الرجل، وداخل نفسه دار الصراع.

انحدرت دمعة من عينيه وهو يرى في نهاية الشارع الجانبي الرجال الثلاثة قد عادوا، ومعهم قرابة العشر رجال كدعم اضافي لهم للانتقام من هذا الشيطان ولكرامتهم المسلوبة.

لم يدم الصراع في نفسه أكثر من هذا.

أعد بندقيته، وثبتت يده المرتجفة وهدَّأ دقات قلبه، وهو يرسم بعينيه خطا وهميا في منتصف الشارع، بين السائق الجريح والحثالة، الذين يتقدمون بعنجهية للانتقام منه، وفي نفسه ترددت جملة واحدة.

أي شخص سيتعدى هذا الخط لإيذاء هذا الرجل.. فلن يجد إلا رصاصتي في صدره.!!!!

من أجلكم



دلف ذلك الرجل الذي بدت عليه مظاهر الترف إلى تلك القاعة، التي يشير كل شيء فيها إلى العملقة.. متناهية في الضخامة، متناهية في الاتساع، متناهية في الارتفاع، أضيئت بمصابيح تم إخفاؤها داخل الأسقف والحوائط، لتجعل الإضاءة واضحة، ومريحة للعين. كان جانب القاعة مملوءً بشاشات عملاقة، يعرض عليها عدة مشاهد لشوارع ومبانٍ ومسيرة الحياة في إحدى المدن، ومشاهد أخرى لأساطيل وحشود عسكرية، وطائرات رابضة، ومدرعات على أهبة الاستعداد، في حين جلس عشرات الرجال أمام الشاشات، يتلقون رسائل ويرسلون أوامر باستمرار، وأمامه وقف صف من العسكريين الذين حملت أكتافهم رتبا مخيفة، وتقدم أحدهم إليه، وكان أكبرهم رتبة، فأدى التحية العسكرية وهو يقول بحزم:

– كل شيء جاهز يا سيادة الرئيس، ونحن على أهبة الاستعداد لتنفيذ الأوامر

ابتسم الرئيس برضا وهو يتساءل: أي مدينة سنلعب بها هذه المرة؟

قال العسكري: المدينة (د 23) يا سيدي والعدو سيلعب بمدينة (س5).

هز الرئيس رأسه متفهما، قبل أن يرفع عينيه إلى الجانب الآخر البعيد من القاعة، والذي احتشد هو الآخر بعشرات الشاشات وعشرات العسكريين، الذين راحوا يجيئون ويذهبون، وفي وسطهم رجل آخر متأنق، رفع إليه يده ملوحا حين رآه، فبادله الرئيس التلويح وابتسم وهو يقول:

- يبدو أن هذا المغرور واثق من نفسه لأبعد الحدود.. سألقنه اليوم درسا لن ينساه.

اتجه بنظره إلى الجدار الشرقي للقاعة، والذي كان كله مصنوعا من الزجاج، مطلا على ذلك المنظر البديع الذي يخلب الألباب ويثير خيال الشعراء.

تعالى في تلك اللحظة صوت أنثوي هادئ، قادما من سماعات القاعة يقول: السادة الرؤساء برجاء التقدم إلى منتصف القاعة، فلقد حان الوقت.

شد الرئيس قامته وهو يتقدم إلى منتصف القاعة، يتبعه رئيس الأركان؛ وعلى الجانب الآخر تقدم الرئيس الآخر هو ورئيس أركانه، ليلتقي الاثنان، ويقفا متقابلين للحظات، قبل أن تنفرج أساريرهما ويتعانقان بود، وأحدهما يقول:

- سيادة الرئيس، لقد مضى وقت طويل لم أرك فيه.

فأجابه الآخر:

- أنت تعلم مسئوليات الحكم يا فخامة الرئيس.. عموما فرصة طيبة أن نلتقي لنقضي بعض الوقت الممتع معًا.

أشار أحدهما بيديه داعيا الآخر إلى مائدة ضخمة في منتصف القاعة، قائلا:

- تفضل سيادة الرئيس، فلقد اشتقت لمواجهة لاعب بارع مثل فخامتك.

ابتسم الرئيس وهو يتقدم من المائدة التي وضعت عليها رقعة شطرنج ضخمة، ارتصت عليها قطع الشطرنج، والتي بدت مختلفة عن المعهود، فلقد حوت طائرات ومدرعات وقلاع وصواريخ.. وقف الرئيسان على جانب رقعة الشطرنج، وقال أحدهما: أشكرك لأنك منحتني مزية اللعب أولا، فأنا أحب دائما أن أحوز المبادأة.

أردف قوله بأن مد يده ليحرك بيدق الملك خطوتين إلى الأمام وهو يقول:

- المشاة.. المشاة هم سادة الحروب، ولطالما أحببت أن أبدأ بهم معاركي.

كان رئيس أركانه في تلك اللحظة ينقل التعليمات إلى الرجال الجالسين أمام الشاشات، والذين راحوا بدورهم ينقلون الأوامر إلى الكتائب المحتشدة. وفي أرض المعركة، تحركت جحافل من الجنود المدججين بالسلاح، وبتشكيل عسكري منظم في اتجاه المدينه (س5).

ابتسم الرئيس الآخر وهو يخرج حصان الملك، والذي كان على شكل طائرة مقاتلة، ليهدد بها بيدق الملك المتقدم قائلًا: أن تقدم المشاة دون غطاء قوي، يجعلهم صيدا سهلا للقوات الجوية.

وبنفس الطريقة، قام رئيس أركانه بنقل الأمر إلى رجاله، وفي أرض المعركة تحركت الطائرات الرابضة داخل المطارات الحربية، وانطلقت أسرابا كالطير الأبابيل،تحلق نحو جحافل المشاة المتقدمة، وفي انتظار الأمر بدكهم وإبادتهم.

وفي القاعة، كان الرئيس يمسك بحصان الوزير، والذي كان أيضا على شكل طائرة، ويخرجه للدفاع عن بيدقه، وهو يقول باسما: وهل هناك غطاء للمشاة المتقدمين أفضل من الطيران.

وعلى الفور، كانت أسراب الطيران تحلق فوق المشاة، موفرة الغطاء اللازم، ومنذرة بالاشتباك مع طائرات العدو.

قال الرئيس وهو يقدم بيدق الوزير خطوتين، ليصبح في وضع الاشتباك مع بيدق الملك المتقدم، وهو يقول:

– والآن يأتي دور المشاة في التقدم.

تحركت جحافل المشاة متقدمة، حتى تراءت هي ومشاة العدو، وعلى الفور أبلغ قائد المشاة القيادة، وطلب الإذن في الاشتباك، ولكنه دهش حين أتته الأوامر بالانتظار وعدم التحرك من موقعه حتى تأتيه الأوامر.

كان الرئيسان في تلك اللحظة ينظران لبعضهما في جذل، وقال أحدهما للآخر

ما رأيك، هل نبدأ المرح الآن؟

لمعت عينا الرئيس الآخر، وفغر فمه مبتسمًا ابتسامة شرهة وهو يقول:

– ولم لا؟

وعلى الفور، قام بتحريك بيدق الملك، ليضرب بيدق الوزير ويحتل مكانه.

وفي أرض المعركة، فتحت قوات المشاة النيران على خصومهم ببذخ، وعلى الفور أبلغ قائد المشاة القيادة ببدء الهجوم، وطلب الإذن برد النيران.

كانت صدمة قائد المشاة مهولة، حين أتته الأوامر بالتزام الهدوء، وعدم رد الهجوم، والاستسلام بهدوء لمشاة العدو.

كان الرئيس الآخر يقول بجزل، وهو يطيح ببيدق الخصم بحصانه الذي على شكل طائره:

– وبالطيران نتخلص من المشاة.

تحركت أسراب الطيران، لتصب نيرانها صبا على قوات المشاة، والتي كانت قد أحكمت سيطرتها على ذلك الموقع، وقاموا بأسر مشاة العدو. ولكن الطيران قام بإبادة القوتين بلا رحمة، ودون تدخل من طيران العدو، والذي أخذ أوامر مشددة بعدم التدخل لحين صدور الأوامر. وسرعان ما جاءتهم الأوامر بالاشتباك مع طيران العدو، بعد أن أتم هذا الأخير مهمته بإبادة المشاة.. كانت مهمة الطيران سهلة، حيث راحت الطائرات تتهاوى أو تستسلم بسهولة ويسر شديدين.

استمرت المباراة قرابة الثلاث ساعات.

وراح كل من الرئيسين يحرك القطع ويضرب المواقع: دمرت لك القلعة..فلتتحرك المدرعات..فليضرب الأسطول.. اضربوا الصواريخ النووية.

وبعد ثلاث ساعات من اللعب المتواصل، نظر الرئيسان إلى رقعة الشطرنج، والتي خلت تماما من القطع، ولم يبق إلا الملكين فقط.

ابتسم أحد الرئيسين وهو يقول: يبدو أن الجيوش أبيدت يا عزيزي.

ضحك الآخر ضحكة جزلة وهو يقول: ولكن الملوك نجوا في النهاية.. تلك هي سنة الحياة يا فخامة الرئيس؛ إما أن تكون بيدقًا وإما أن تكون ملكًا.

ضحك الاثنان وتصافحا في مودة، وقال الرئيس:إإذن فالنتيجة متعادلة.

ضحك الثاني وهو يقول: ولكني لن أرضى بتلك النتيجة يا عزيزي، فلابد أن أنتصر عليك، لذا فإني أقترح مباراة أخرى غدًا في نفس الموعد.

هز الآخر رأسه موافقًا وهو يقول: على الرحب والسعة، لا شيء أفضل من اللعب مع لاعب بارع مثلك يا عزيزي.

التفت الرئيس إلى قائد أركانه وهو يقول: ما هو الحال على الأرض؟

شد رئيس الاركان قامته وهو يقول:

– للأسف يا سيدي، لقد أبيدت كل القوات بالكامل، كما دمرت مدن (د 23) و (س5) تماما، وهلك كل من كان فيها من بشر ولم ينجُ أحد.

مط الرئيس شفتيه في امتعاض وهو يقول:

– لا بأس.. أنت تعلم أننا نعاني من مشاكل كبيرة بسبب العدد المهول للبشر، وهلاك بضع مئات الألوف أو حتى الملايين سيخفف بعض الشيء من هذه المشكلات.

ثم ابتسم قائلا:

– إن كل ما نفعله هو في النهاية من أجل الناس ومن أجل مصلحتهم.

رفع قائد الأركان يده بالتحية العسكرية في احترام، وهو ينظر إلى رئيسه بنظرة إعجاب.

أردف الرئيس بحزم:

– هيا أعدوا حشودا جديدة، واختر لنا مدينة أخرى، تكون موقعا لمباراة الغد.. أقصد لمعركة الغد، فلقد وعدت الرئيس بأني سأهزمه هذه المرة.

حياه رئيس الأركان مرة أخرى، وانطلق مسرعا لتنفيذ الأوامر، في حين دلفت فتاة حسناء إلى القاعة، تقدمت نحو الرئيس وقدمت إليه بعض الأوراق المطبوعة وهي تقول:

– تفضل يا فخامة الرئيس، هذه هي الخطبة التي ستوجهها للأمة بعد قليل.

تصفح الرئيس الورقات على عجل وهو يقول بفروغ صبر:

– حسنا.. حسنا، فلنبدأ الآن لننتهي بسرعة من هذه المهمة الثقيلة.

وعلى الفور أعدت له منصة، وبدأت فرق التصوير في ضبط الكاميرات، والتي راحت تبث لمحطات البث الأرضي، التي راحت بدورها تنقل الصورة إلى جميع أجهزة التليفزيون والشاشات العملاقة بالميادين، وظهر عليها الرئيس الذي ارتسمت عليه ملامح الأسى، فتوقفت الحياة في الدولة.. السيارات، الحافلات، القطارات، حتى البشر.. كل شيء توقف، ووقف الجميع يتابعون الشاشات التي راحت تبث خطاب الرئيس، الذي قال بحزن:

– أيها الإخوة المواطنون.. قامت قوات العدو اليوم بعمل اجرامي متوحش، حين هاجمت المدنيين العزل والنساء والأطفال في المدينه (د23).. ولكن أبناءنا البواسل وجنودنا الأشاوس استطاعوا التصدي لهم وتلقينهم درسا أليما، واستطاعوا رد عدوانهم ببسالة وشجاعة.

نكس رأسه في أسى وهو يقول:

- ولكن العدو الجبان قام باستخدام كل سلاح محرم، حتى يضمن النصر في تلك المعركة.. فكانت النتيجة أننا فقدنا سكان المدينة (د23).. للأسف الشديد.

ثم رفع رأسه بحزم، وارتسمت على وجهه ملامح القوة وهو يقول:

- ولكن عدونا لن يهنأ ساعة بعد اليوم. سنرد له الصاع صاعين..سننتقم منهم شر انتقام ونذيقهم من نفس الكأس.

اطمئنوا..فلن يهدا لي بال حتى أنتقم لشهدائنا وأعيد الاعتبار لوطننا.. وهذا ليس حبا في الثأر؛ ولكنه من أجلكم.. من أجل مستقبل أبنائكم.

من أجلكم.. سنسهر الليل ونعمل النهار

من أجلكم.. سنستعيد الكرامة والاعتبار

من أجلكم.. سنمحو الليل ونعيد النهـــار

انتهى خطاب الرئيس، فتحرك الناس دون كلمة.. تحركت السيارات، أكملت الحافلات سيرها، وواصلت القطارات مسيرتها.

تقدمت الفتاة الحسناء من الرئيس قائلة: لقد كنت رائعا يا فخامة الرئيس

ابتسم الرئيس قائلا: كل هذا من أجل الناس ومن أجل الوطن.

ابتسمت، قبل أن تستأذن الرئيس، وخرجت من القاعة تاركة الرئيس الذي عقد يديه خلف ظهره، وهو يدير وجهه إلى الجدار الشرقي للقاعة، والذي كان عبارة عن جدار زجاجي ضخم يطل على ذلك المنظر الساحر الخلاب.. المنظر الذي يثير خيال الشعراء.. منظر الفضاء الفسيح الذي تسبح فيه النجوم.

ووسطها، راح ذلك الكوكب الأزرق يسبح متأنيا، مشعا بلونه الفيروزي الجميل، وإن تخلل زرقته عدد من الندوب السوداء، التي خلفتها الحرائق النووية.

الكوكب الذي يدعوه سكانه بالأرض.

ارتسمت ابتسامة ساخره على شفة الرئيس، الذي راح يراقب حركة الأرض من شرفة المحطة المدارية، مقر الحكومات العالمية وهو يغمغم.

نعم..

إن كل ما نفعله..

من أجلكم.



أنهت سهام عَمَلَها، ونظرت إلى ساعة الحائط المُعلقة في مكتبها الفاخر لتُفاجَأ بأن الساعة تجاوزت الحادية عشرةِ، فخلعت نظارتَها الطِّبية مُغمضةً عينيها قليلًا قبل أن تُلملم حاجياتها استعدادًا للانصراف قبل أن تتوقف قليلًا لتنظر من الجدار الزجاجي خلف مكتبها إلى النيل الذي يشرف عليه مبنى الشركة العِملاق، والذي يصل عدد طوابقه إلى **50** طابقًا، ليكون أعلى بناء في مصر كلها، تحتلُّ شركتها الطوابق الخمسة الأخيرة منه،ثم أطفأت الأنوار وخرجت من مكتبها على عَجَلٍ.

جَميلةٌ هي، تجاوزت الأربعين من عُمرِها، إلا أنها لم تتزوج، ترى أن الزواج ضعفٌ وعَقَبَةٌ في سبيل النجاح، إنها المُديرة التنفيذية لهذه الشركة.. الموظفون يسمونها المرأةَ الحديدية، وهي تَسمِيةٌ مُناسبةٌ لها

جدًّا إنِ شئنا الدقة، فهي بالفعل حديدية الطبع والملامح، حتى يظنّ من يتعامل معها أنها آلةٌ أو تمثالٌ من شَمْعٍ لا حياة فيه ولا انفعال.

ناجحةٌ هي، وموضع ثقة مجلس إدارة الشركة، رغم كُرهِ الجميع لها، وأعني بالجميع هنا موظفي الشركة الذين يعانون منها الوَيلاتِ.. لم تكن تتردَّدُ لحظةً وهي توقعُ جزاء قاسيًا أو تأمر بالاستغناء عن بعض العمالةِ..كثيرًا ما تكرر مشهد الاسترحام او الاستعطاف من أحد المطرودين من الشركة – لأسباب تافهة في الغالب – حتى وصل أحدهم لمحاولة تقبيل قدمها، مُستعطفًا إيَّاها بأبنائه الذين سيجوعون إن انقطعَ مَصدرُ رزقِه.

ولكنها كانت دومًا المرأة الحديدية ذات القلبُ الحجري الذي لا يلين أو يرقُّ، كانت دومًا تعتبر العطف والشفقة ما هي الا عوامل فَشَلٍ، ولكي تنجح فعليها أن تدوسَ على كل مَنْ يُعطِّلُها دونَ رحمةٍ.

خرجت الى الممر المؤدي إلى المِصعد، فوقف موظف الأمن الجالس على كونتر أمام مكتبها، وتوجَّهَ ناحيتها بسرعةٍ ليحمل حقيبتها ويتقدَّمها إلى المصعد، ويضغط زرَّ استدعائه، وينتظر دقيقة قبل أن يصل المصعد إلى الطابق الموجودة فيه، ويفتح أبوابه، فدلفت سهام إليه دون كلمةٍ، ومدَّت يدها للتناوَلَ حقيبتها منه وهي تتفحَّصُه بدقةٍ، ثم قالت ببرودها المعهود:

- رابطة عُنقك غير مَعقودةٍ جيدًا.

امتقع وجْهُ الرجل وهو يمدُّ يده بسرعةٍ إلى رابطة عُنقهِ وهو يعرف معنى هذه الجملة جيدًا،

ثم قالت ما توقَّعَهُ:

- خَصْم 5 أيام.

وقبل أن يفتح فمه بأي كلمة كانت تضغط زِرَّ إغلاق الباب، فشَحبَ وجْهُ الرجل، وشَعُرَ بغُصةٍ في حلقه وقال بصوتٍ خَفيضٍ مخافة أن يصل صوته إليها:

- حسبي الله ونعم الوكيل، ربنا ينتقم منك.

ضغطت زر الطابق الأرضي، وانتظرت لحظةً قبل أن يتحرك المصعد في طريقه للنزول،

تعلمُ أنهم يكرهونَها، ولكنها لا تهتمُّ، العمل لا قَلْبَ له، هذا هو مَبدؤها.

هبط المصعد طابقًا واحدًا، ثم توقَّفَ في الطابق الـ 49، فشعرت بدهشةٍ، ألا يزال هناك أحد في الشركة؟

فُتِحَ باب المصعد ببطئه المعهود لترى شابًّا وسيمًا في مُنتصَف الثلاثينيات، يرتدي بذلة كاملةً، ويمسك حقيبةً مُنتفخةً، ويبتسم لها ابتسامةً لم تفهم معناها، دلف بهدوء إلى المصعد، وهَزَّ رأسه مُحيِّيًا إياها، ويقف بجوارها بهدوءٍ.

كانت تعرفه جيدًا، فهو أحد الموظفين في قسم الحاسب الآلي، يُدعى (سالم)، ولكن ما جعلها تتذكره جيدًا أنها وقّعت اليومَ قَرارَ فَصْله! لأحد تلك الأسباب التافهة التي قد لا يلتفت إليها أحدٌ، ولكنها بالنسبة لها جرائم تستحقُّ الفَصْلَ الفوري.

تساءلت في صرامة:

- لماذا ما زِلتَ هُنا؟

رَفَعَ حقيبته المُنتفخة قليلًا وهو يقولُ:

- كنتُ أُلْمِمُ مُتعلّقاتي الشخصية.

توقّعت أن يبدأ في استعطافها ومحاولة إثنائها عن قَرارِها، ولكنه ظَلّ هادئًا، ولم يعلق بكلمة أخرى، والباب يُغلقُ ليستمِرَّ المصعدُ في رحلة هُبوطِه.

هبط المصعد ثلاثة طوابق أخرى، وبين الطابقين **46** و**45** توقّفَ.

راحت سهام تضغط أزرار المصعد مرارًا، ولكن المصعد ظَلّ على حاله وسُكونِه، ضغطت زر الإنتركم في محاولة لاستدعاء مَنْ يحلُّ مشكلة المصعد، ولكن الإنتركم لم يستجب، توترت قليلًا والتفتت إلى سالم الذي ظَلّ هادئًا ومُبتسمًا نفس الابتسامة التي لم تفهمها.

قالت بتوترٍ: ما الذي يحدثُ بالضبط؟ لم يحدث شيءٌ كهذا من قبل؟

لم يجبها سالم، وإنما توجَّهَ بهدوءٍ إلى رُكن المصعد، ووضعَ حقيبتَه جانبًا، ثم خلع جاكيت بذلته ووضعه فوق الحقيبة، وفَكَّ رابطة عُنقه ووضعها فوقها، ثم فَكَّ أزرار أساور قميصه، وراح يطويه بهدوء وهو ينظر إلى سهام بنفس ابتسامته التي فهمت سهام الآن أنها ابتسامة متشفية ساخرة.

تراجعت سهام بخوفٍ إلى الرُّكن الآخر للمصعد وهي تضمُّ يدها إلى صدرها، وكأنما تستمدُّ منه الحمايةَ، وراحت تُراقب ما يفعله سالم بتوجُّسٍ، وقد ملأ الشَّكُّ نفسها من نِيَّاته .

خلع سالم حذاءه ثم جلس في ركن المصعد بنفس الهدوء وهو يقول لسهام:

- معذرةً، فالأمر سوف يطول قليلًا، لن يتحرك المصعد قبل ساعةٍ من الآن، ولا أعتقد أنك ستبقين واقفةً طوال الساعة.

تعجبت من كلام سالم وهي تقولُ:

- وما أدراكَ؟

مَطَّ شفتيه كأنما هذا أمرٌ بديهيٌّ وهو يقول:

- لأني أعلمُ ذلك وكفى.. المصعد لن يتحرك من هذا المكان قبل ساعةٍ من الآن.

لم يبدُ عليها الاقتناع وهي تحاول مرارًا الاتصال بالإنتركوم أو ضغط أزرار المصعد قبل أن تتوقَّفَ بيأسٍ والتفتت إلى سالم الذي لم يبدل من جلسته الهادئة، وقالت بعنفٍ:

- ما الذي يحدث؟ أنت تعلم شيئًا.. أأنتَ وراء هذا الأمر السخيف؟ هل ترغب في الانتقام مني لأني فصلتُك؟

عاد سالم ليمطَّ شفتيه بتلك الطريقة التي تدلُّ على البديهية:

- ليس بالضبط .. فأنا لم أعطل المصعد، ووسائل الاتصال لكي أحبسَك هنا، ولكني أدَّعي أني مَنْ أوقعتُك في هذا المَأْزِق.

بدا عدم الفهم على وَجْهِ سهام، ولاذت بالصَّمت، في حين أكمل سالم ببساطة:

- نعم أنا من أوقعتك في هذا المأزق، وأعلم أن المصعد سيمكث هنا ساعةً كاملةً.

ثم رَفَعَ ساعِدَهُ لينظر إلى ساعته قائلًا:

- 55 دقيقة إذا شئنا الدِّقةَ.

ثم قال ببطءٍ:

- كما أعلمُ أن حَبْلَ الجَرِّ الأول سينقطعُ بعد خمسِ ثوانٍ من الآن.

ارتسمت نظرةٌ بلهاء على وجه سهام وهي لا تفهم معنى ما يقوله، ولكن في اللحظة التالية أحسَّت بأن شيئًا ما انقطع بأعلى المصعد، فارتجَّ بعُنفٍ قبل أن يهدأ ويستقرَّ مرةً أخرى.

ارتجفَ قَلْبُ سهام فَزَعًا، والتصقت بزاوية المصعد وقالت برُعْبٍ:

- ماذا حَدَثَ؟

كان سالم في مكانه كأن شيئًا لم يحْدث، فرَدَّ:

- كما أخبرتُكِ، حَبْلُ الجَرِّ الأول انقطع، ويتبقى 3 أخرى ستنقطعُ قريبًا على التوالي خلال الساعة القادمة، وفي النهاية سيسقط المصعد سقوطًا حُرًّا من الطابق 45 ليرتطم بالأرض.

شَحبَ وَجهُها وهي تستمع لما يقوله سالم وقالت:

- أنتَ مَجنونٌ، حتمًا مجنونٌ.

قال بجديَّةٍ:

- مع الأسف، لستُ مجنونًا، وإن كنتُ أتمنى في كل لحظةٍ أن أكون كذلك.

أحست أنها غير قادرة على الوقوف أكثر بعد هذا التوتر الذي تمرُّ به فخلعت حذاءها ذا الكعب العالي، وجلست مُسندةً ظهرها إلى جانب المصعد الآخر وقالت:

- إذا كان المصعد سيسقط كما تقول، فلماذا تجلسُ معي هنا؟ لماذا لم تتركني أهبطُ بالمصعد وحدي لأواجهَ الموتَ؟

قال سالم:

- لأني لا أستطيعُ أن أتحمَّلَ دمًا جديدًا على عاتقي وضحيةً جديدة تُؤرِّقُ منامي.

انكمشت على نفسها وقالت بصوتٍ مَبحوحٍ:

- ضحايا؟ هل أنت قاتل؟

بدت المرارةُ على وجه سالم وهو يقول:

- أنا لم أقتُلْ أحدًا إن شئتِ الدِّقةَ، ولكني أتحمل دماء العديد من الأشخاص الذين تسبَّبتُ في مَوتهم.

لم تَفُهْ سهام بكلمةٍ، وهي تستمع إلى سالم الذي استمرَّ في حديثه قائلًا:

- لا يزال أمامنا 50 دقيقة أخرى قبل سقوط المصعد، فلا بأس مِنْ أنْ أُزَجِّيَ الوقت معك بتفسير الأمر إذا لم تُمانعي.

لم يكن سالم ينتظر مُوافقتَها فاستمَرَّ يحكي:

- مُنْذُ طفولتي وأنا إنسان بسيط، شخص عادي لا يميزه شيءٌ، فلا أنا بالعبقري في دراستي ولا بالفاشل، لستُ بالإنسان الملتزم التقي الوَرِعِ، ولستُ أيضًا بالشيطان ولا الشرير أو الفاسق العِربيد، بمعنى آخر أنا إنسانٌ مُملٌّ، رُوتينيٌّ، لا أختلفُ عن ملايين مِمَّن هم أمثالي.

عَدَّلَ من جلسته وهو يستكمل:

- لستُ شريرًا بطبعي، ولكني عثرت في رأسي على شيطان كامن يحمل مِن الشَّرِّ ما لا يطيقُه بَشَرٌ. نعم بلا أي مبالغة، فإن رأسي يحمل من أفكار الشَّرِّ ما تعجز الشياطين عن المجيء بمثله، عندما يسرح الانسان الطبيعي بأفكاره فهو غالبًا ما يفكر في حياته ومُستقبله أو ماضيه، يفكر في أفكار سعيدة أو هموم يتمنَّى زوالها، أما أنا فالأمر يختلف.

فما أُفكِّرُ فيه دومًا أمورٌ لا يمكن أن يفكر فيها إنسانٌ طبيعيٌّ، جُثث، دماء، قتل وذبح وسلخ، أمور تجعل معدتك تلفظُ ما فيها اشمئزازًا. في البداية ظننت أن الجميع يفكرون مثلي، ولكني اكتشفتُ أن الأمر ليس كذلك من نظرات الذهول والفزع التي كانت ترتسمُ على وجه مَنْ أقولُ لهم ما أفكِّرُ فيه، ومع الوقت تعلَّمتُ أن أحتفظَ بأفكاري لنفسي، وأنا أحيا حياة أتخيَّلُ أنها طبيعية.

ولكن للأسف، فالأمور لا تسيرُ بهذه البساطة، فلعنتي لم تتوقَّفْ عَمَّا يدورُ في رأسي من أفكارٍ أقَلُّ ما توصف به أنها شيطانية، ولكن لعنتي زادت على ذلك شيئا آخرً جعل حياتي جحيمًا مُتواصلًا.

نظر إلى ساعة معصمه وهو يقول:

- ما زال لدينا بعض الوقت، يمكن أن أحكي لك مَشهدًا أو اثنين من حياتي أو بمعنى آخر مأساتي.

***

المدرسة الإعدادية.

كان سالم يتلمَّسُ طريقه في سَنتِه الأولى من دراسته الإعدادية، كان سعيدًا بملابس الإعدادية التي تختلفُ بالكامل عن مريلة الابتدائية وإحساسه بأنه تَرَكَ مرحلةَ الطفولة، وأنه الآنَ في طريقِه إلى الرجولة.

عرف الكثير من الأصدقاء الجُدد في المدرسة، وكان سعيدًا بهم ويحاول أن يجاريهم في اهتماماتهم.

لقد ظَلّ اللّهوُ ولَعبُ الكرة وصيادين السمك وغيرها هو السائد بين أبناء هذه السنِّ، ولكن كان هناك أيضًا الكلام الخفي عن الحب أو الفتيات أو حتى السجائر التي ربما اختلس واحدة منها من علبة أبيه ليدخنها سِرًّا في محاولة منه لترسيخ شعوره بالرجولة الوليدة.

كانت المدرسة الإعدادية بالنسبة لسالم جنة يقضي فيها أفضل أيامه، لم يكن يُنغِّصُ عليه وَقْتَه فيها إلا علاء!

علاء كان طالبًا معه في نفس السنة، ولكنه كان يكبره بعدة أعوامٍ وذلك لرسوبه المستمر في سنوات الدراسة الابتدائية حتى صار طالبًا في المرحلة الإعدادية، ولكنه بعمر طالب ثانوي، لذا فقد كان يعتبر كل طُلاب المدرسة بالنسبة له أطفالًا يُمارِسُ عليهم سَطوته وساديته الأصيلة.

ولكن رغم سخافته وتعامُله المُتسلّط مع طلاب المدرسة فقد كان يحتفظ بأسوأ ما فيه لسالم!

منذ أن رآه أول مرة شَعُرَ بأن علاء سيكون هو مشكلته الكبرى، وكان مُحقًا في ذلك، فمرات عديدة قام بضربه وإهانته أمام زملائه، ولكن الأسوأ لم يكن قد جاء بعد.

كان سالم لديه دُميةً أهداها له خاله، تُعدُّ دُمية دُبٍّ أبيض من النوع المحشو بالإسفنج والقطن، له عينان زجاجيتان حمراوان، ومُزوَّد بزر خفي في الذراع إذا ضغط عليها تضيء العينان بضوء احمر مُتقطع وتعملُ أسطوانة أغنية إنجليزية شهيرة

Twinkle Twinkle
Little Star

وضع سالم الدمية معه في حقيبة المدرسة؛ لكي يريها أصدقاءه، ففي ذلك الوقت كانت دمية مثل هذه أعجوبة تدعو للفخر لمن يمتلك مثلَها.

في فناء المدرسة التقى بأصدقائه، فأخرج الدمية مُفتخرًا وهو يريهم كيف تعمل الأغنية المُخزنة بالدُّمية مُستمتعًا بنظرات الانبهار في عيون زُملائه

كان ذلك عندما وجد علاء يقف أمامه بقامته المديدة ينظر إليه باستخفاف، ثم مَدَّ يده بسرعةٍ واختطفَ الدُّمية من سالم، وأخَذَ يفحصُها باشمئزازٍ وهو يقول:

- أما زلت طفلًا حتى تلعب بالدُّمى؟!

جُنَّ سالم وهو يحاول استعادة لُعبته، ولكن علاء رفع يده بالدُّمية عالية، مُستمتعًا بمحاولات سالم اليائسة لاستعادتها.

دفع علاء سالم بقدمه ليسقط على ظهره، ثم أمسكَ بالدُّبِّ من يده، فتصاعدت الأغنيةُ، وراحت عينا الدُّبِّ تُضيئان.

Twinkle Twinkle Little Star

قال علاء بسخرية:

- ترى من أين تصدر هذه الأغنية؟

ثم بسرعة راح يمزق الدمية مُخْرِجًا ما بها من إسفنج وقطن حتى تحولت إلى أشلاء.

هنا جُنَّ سالم تمامًا، وقام بسرعة حاملًا حجرًا مُتوسطًا قَذَفَ به علاء بغِلٍّ، فارتطم بصدره فتأوَّهَ مُتألِّمًا، ثم اشتعلت نيران الغضب في عُروقِه، فأمسك بسالم يُكيلُ له الضربات، حتى كاد سالم أن يُغشى عليه، في النهاية سحب علاء سالم إلى ساري العلم المنصوب وسط فناء المدرسة، ثم قام بتقييده به والتفت بظفر إلى طلاب المدرسة الذين راحوا ينظرون إليه بخوفٍ.

لقد تحدَّى سالم سُلطته، ويجب أن يجعل منه أُمثولةً حتى لا يتجرأ غيرُه على مِثْلِ هذا الفعل.

عاد علاء بنظره إلى سالم المربوط في الساري، ثم فتح سحَّاب بنطاله، وراح يبولُ على سالم!

لم يشعر سالم في حياته بالإهانة مثلما شعر بها ذلك اليوم.

ذلك اليوم عاد سالم إلى بيته ولم يكلم أحدًا، ولم يأكل أو يشرب، ظَلَّ في غُرفته لا يفعل أي شيء إلا التفكير!

ظَلَّ يُمارِسُ هوايته الأساسية بالتفكير في الأمور الشيطانية، ولكن محور أفكاره هذه المرة كان علاء، ظَلَّ يبحث عن سيناريو شيطاني يُشفي غليله، مضى اليوم والليلة وهو يفرغ كل انفعالاته في أفكاره التي تمحورت حول تعذيب علاء وقتله بأبشع وسيلة مُمكنة، لكن هناك فكرة واحدة ألحَّتْ عليه بشدة، وظَلَّ يُعيدُها ويُكرِّرُها في رأسه حتى تَعِبَ من التفكير، وراح في سُباتٍ عميقٍ.

في اليوم التالي ذهب سالم إلى المدرسة رغم عدم رغبته في ذلك، فهو غير قادر على مواجهة عيون زملائه بعد ما فعله به علاء بالأمس.

ولكن عندما وصل إلى المدرسة لاحظ شيئًا غريبًا يحدث، كان هناك اضطراب شديد والمدرسون يحاولون إبعاد الطُّلاب عن وسط الفناء، حيث ساري العلم، ولكن رغم هذا استطاع العديد منهم الوصول إلى هناك لمشاهدة هذا الشيء الذي يحاولون إبعادهم عنه.

استطاع سالم أيضًا أن يصِلَ إلى الساري ويرى الهول.

كان هناك جسد مُعلّقُ على الساري، جسد يعرفه سالم جيدًا، جسد علاء الذي لاحظ الجميع أن هناك شيئًا ما خطأ به.. لم يكن جسدًا بالمعنى المعروف، بل كان هيكلًا لجسده، لم يكن إلا الجلد الخارجي لعلاء، وقد تم سَلْخُه من على جسده تمامًا، وأُعيدَ حَشْوُ الجلد مرةً أخرى بالقطن والإسفنج واستُبدلت عينان زجاجيتان بعينيه.

كان زملاؤه يُفرغون معداتهم مما يرون، أما هو فلم يكن يشعر بالاشمئزاز، بل يشعر بالرُّعْب!

كان مصدر رُعْبِه هو أنَّ هذه هي الفكرة التي ألحّتْ على رأسه طوال يوم أمس، إنه العقابُ الذي وجده يليقُ بعلاء.

وصلت الشرطة فراحوا يُبعدونَ الطُّلابَ، في حين أحضر بعضهم سُلمًا وصَعَدَ أحدهم، وحمل الهيكل الخفيف لجسد علاء ونزل به، ولكن الرجل يبدو أنه أمسك بيد علاء اليُمنى بقوةٍ زائدة، كان ذلك وعلاء يتراجع عن الساري وهو يعلم ما سيحدث الآن.

بسبب ضغطة الرجل على ذراع علاء راحت عينا علاء الزجاجيتان تضيئان باللّون الأحمر بشكلٍ مُتقطعٍ، وصدرت الأغنية المسجلة على أسطوانةٍ مُخبأةٍ داخل حشوة الجسد.

Twinkle Twinkle
Little Star

أنهى سالم حكايته، فبدا الرُّعْبُ على وجه سهام، وسألت بصوتٍ مُتحشرجٍ:

- هل قَتَلْتَه؟

أجابَ سالم وهو ينظر في ساعة معصمه:

- لا، لم اقتُلْه بيدي، ولكني قتلته في عقلي.

ثم أضاف:

- والآن ينقطع حَبْلُ الجَرِّ الثاني.

مع انتهاء جملته اهتزَّ المصعد مع قطع الواير الصلب الثاني الذي يُعلِّقُ المصعد بماكينة الرفع.

هوى قلب سهام ثم قالت:

- هل سأموتُ هنا؟

ثم أضافت بسرعةٍ:

- ولكنَّكَ ستموتُ معي.

قال سالم بجديةٍ:

- صدقيني أنا أتمنى أن يكون كلامك صحيحًا، لا تتخيلي كم أتمنى أن أموت، ولكن للأسف هذه رفاهية لا أستطيعُ بُلوغها.

فجأةً برقت عيناها بالأمل، وأمسكت بحقيبتِها بسُرعةٍ تبحثُ فيها عن شيء ما، فأغمض سالم عينيه باستمتاعٍ وهو يقول:

- لا تتعبي نفسك، فشبكة الموبايل لن تعمل.

تجاهلته وهي تُخرِجُ هاتفها وتحاول الاتصال، ولكنها اكتشفت بالفعل أن شبكة المحمول لا تعمل، وهو أمر غريب لم يحدث معها مُطلقًا خاصة في مقر الشركة، فأبراج التقوية تعلو المبنى نفسه.

قال سالم:

- لا تتعبي نفسك فالسيناريو الذي أعددْته لك مُحْكَمٌ تمامًا، ولا توجد فيه ثَغْرةٌ للنَّجاةِ.

عادت لجلستها يائسةً وهي تقول:

- أتريدُ أنِ تقنعني بالسخافات التي تحكيها هذه؟ هل تريد إقناعي بأنك تقتل الناس بأفكارك.

قال سالم:

- أنا لا أهتمٌّ إذا اقتنعتِ أم لا، فهذا شأنك، ولكن الحقيقة تظلُّ كما هي، نعم أنا أقتلُ الناس بأفكاري، أو بمعنى آخر هناك مَنْ يُحوِّلُ أفكاري إلى واقِعٍ مَلموسٍ.

قالت:

- ومَنْ هذا الذي يفعلُ ذلك؟

ابتسمَ بسُخريةٍ وهو يقول:

- الشياطينُ بالطبع.. حَسِبْتُ هذا واضحًا.

سرت القشعريرة في جسد سهام، وزادت من انكماشها في رُكن المصعد، في حين نظر سالم إلى ساعته وهو يقول:

- باقي 25 دقيقة، أعتقدُ أنه وقتٌ كافٍ لأن أحكيَ لكِ مأساةً أخرى.

***

كلية التجارة

إنها السنة الأخيرة لسالم في الكلية، وقد أصبحَ شابًّا يافعًا يمتلئ بالنشاط والحيوية والحب.

أجل الحب، أسماء زميلته في الكلية التي ارتبط معها بقصة حب منذ لقائهما الأول في السنة الأولى واستمر حتى السنة الأخيرة على مدار أربع سنوات.

أحبَّها كما لم يحب أحدًا في حياته، كانت أسماء فاتنةً، بارعةَ الحُسْنِ، ولكن ليس هذا ما جَذَبَه إليها، هو لا يدري السبب، ولكنه وَجَدَ نفسه يعشقُها دون مقدماتٍ، وهي أيضًا بادلته حبًّا بحبٍّ، وتعاهدا أن يكونا لبعضهما البعض مهما يَطُل العمر.

التقيا عند المساء على شاطئ النيل، فسارا متشابكي الأيدي ينظران إلى الشمس الغاربة.

لم يكونا بحاجة إلى كلامٍ، فقلوبهما باحت بما فيهما، وصارا يفهمان بعضهما البعض بنظراتِ العيون، دون حتى ان يتكلما.

أحبُّك.

أحبُّك.

ستبقينَ لي إلى الأبد.

سأبقى لك الى الأبد.

رفع يدها إلى شفتيه فقبَّلها، ونظر في عينيها قائلًا:

- أُعاهِدُكِ أن أظَلَّ أحبُّك إلى الأبد.

فنظرت إلى عينيه قائلة:

- أعاهِدُكَ ألا أكون لغيرِكَ ما حييتُ.

وافترقا على عَهْدٍ باللقاء

..

في اليوم التالي تقدَّمَ رجلٌ ثريٌّ لأسماء فقَبِلَتْ وتمَّت الخطبة في حَفْلٍ عائليٌّ مُصغَّر!

كانت الصدمة قوية لدرجة أن سالم لم يصدق ما حدث.

حاولَ أن يتصل بها، ولكنها لم تُجِبْ.

في النهاية أرسلت له رسالة مُقتضبةً تقولِ له فيها: "كل شيء قِسمة ونصيب".

رفض عقله أن يصدق أن أسماء تركَتْهُ بهذه السهولة، حاول أن يُقْنِعَ نفسَه بأنها قد ضَغَطَ عليها، وأنها مُجبرةٌ على هذه الخطبة.

انتظر أن تأتيَ إلى الكلية، ولكنها لم تفعل، يبدو أنها قَرَّرت تَرْكَ الجامعة.

لم ييأس وراح يُراقِبُ مَنزلَها حتى ظفر منها يومًا بلقاء، عندما نزلت لشراء بعض المُستلزمات الخاصة بزواجها.

لقيها في الطريق، ولكنها لم تنظر إليه، حاول أن يُكلِّمُها، ولكنها لم تلتفت له، اعترض طريقَها فقالت له: – لماذا لا تفهم؟ كل شيء قسمة ونصيب.. وأنا راضية بقسمتي، لماذا لا ترضى أنتَ أيضًا؟

قال بذهولٍ:

- وعهودنا؟ وحبُّنا؟ ألم تعاهديني ألا تكوني لغيري؟

أجابته بسُخريةٍ:

- أما زِلتَ تعيش في هذه الأوهام؟ أفِقْ، فالكلمة اليوم للمال وليس للحُبِّ.

ثم أشارت له ليبتعد عن طريقها قائلةً:

- أفسح الطريقِ الآن، وإلا سأصرخُ وأدَّعي أنك تتحرَّشُ بي.

شحب وجه سالم وتحرَّكَ جانبًا، ولم يعد يشعر بأحدٍ، وظَلَّ يمشي على غيرِ هُدًى حتى أخذته قدماه إلى النيل حيث كان يلتقي بأسماء.

جلس ناظرًا إلى شمس الغروب، ثم أغمض عينيه في ألمٍ.

وَجَدَ نفسَه يرسُم سيناريو شيطاني آخر، سيناريو بطلتُه أسماء هذه المرة.

كان حُبُّه لها يمنعُه من قَتْلِها في أفكاره، ولكن خيانتها وغدرها حركت أحقاده، فابتدعَ فكرةً شيطانيةً أخرى لا دماء فيها، ولكنه العقاب المناسب الذي قَرَّرَهُ لها.

***

نظر إلى ساعته وهو يقول:

- والآن ينقطعُ الحبل الثالث.

ارتجَّ المصعدُ مرةً أخرى مع انقطاع الحبل المعدني، وأن الحبل الأخير تحت ثقل المصعد، فراحت أصوات احتكاك المعادن يتعالى مُدمِّرًا أعصاب سهام التي ابيضَّ وجهُها وقد خلى من الدماء تمامًا، فنظرت إلى سالم مُستنجدةً، فابتسم قائلًا:

- لا تخافي، فأنا هنا لإنقاذك.

قالت بيأسٍ:

- أنتَ بحاجةٍ لمن ينقذُك، فأنت في نفس المَأْزِق معي.

قال بهدوء:

- لم أخبرك أني في أحيانٍ كثيرةٍ لا أستطيعُ التعايُش مع لعنتي هذه، فيصل بي الحال للانتحار!

نعم لقد جربتُ كل شيءٍ، الشَّنقَ، قَطْعَ الأوردة، السُّمَّ، حتى إنني مرةً ألقيتُ بنفسي من فوق هذا المبنى.

ولكن في كل مرة نفس النتيجة.. فَشَلٌ ذريع.. الشَّنقُ يفشل لأن هناك من يحملني طوال الوقت في الهواء فلا أختنِقُ أو يُكسَر عُنقي، السكين تعجز عن قطع أوردتي، وكأنها مصنوعةٌ من الورق، وليس من المعدن، السُّمُّ ينصرف من أمعائي دون أن يُهضمَ أو يتفاعَلَ مع أحماض المعدة، وفي المرة التي ألقيتُ فيها نفسي من فوق المبنى وجدتُ نفسي أُحلِّقُ بهدوءٍ وكأني مُعلَّقٌ بحبْلٍ خَفِيٍّ حتى وصلتُ إلى الأرض بسلامٍ.

لكل إنسان حَفَظَةٌ من الملائكة يحفظونه من الشُّرور التي ليست من قَدَرِ الله لهم، أما أنا فمن يحرُسُني ليسوا ملائكة بل شياطين.

أنا لستُ شيطانًا في صورة إنسانٍ، لو كان هذا ما يدور بخَلَدك، أنا إنسانٌ طبيعيٌّ كما سبق وأخبرتُك، ولكن مشكلتي أني أمتلك عَقْلًا لا يفكر ألا في الأفكار الشيطانية، ويبدو أن أفكاري هذه راقت لهم،

لذا فهم يسارعون بتطبيقها عمليًّا كالطالب المُجتهد الذي يُسارِعُ بتطبيق ما تعلَّمه من أستاذِه، ويبدو أنهم يعتبرون رأسي هذا مَعينًا لا ينضبُ من الأفكار الشيطانية؛ لذا فهم يحافظون على كنزهم الاستراتيجي من كل سوءٍ.

قالت بصوتٍ مُتهَدِّجٍ:

- أتعني أن المصعد لن يسقط وأنت فيه؟

هَزَّ رأسه بالنفي وهو يقول:

- لا، بل سيسقطُ، وسيكون مصيرك الموت في حُطامه حتى مع وجودي معك في المصعد.

قالت بصوتٍ غلبه البكاء:

- كيف ستنقذُني إذًا؟

قام واقفًا للمرة الأولى منذ ساعة وهو ينظر في ساعته قائلًا:

- يتبقى دقيقة واحدة الآن قبل السقوط الأخير للمصعد، وهناك وسيلة واحدة لإنقاذك.

قامت من مكانها صائحةً:

- وما هذه الوسيلة؟

فردَ ذراعيه على جانبيه وهو يقولُ:

- عانقيني بقوةٍ وتعلّقي بي بشدَّةٍ.

نظرت له بدهشةٍ ولكنه قال لها بسرعةٍ:

- عندما سيسقط المصعد فإن حُراسي سيحافظون على حياتي، وسيحملونني قبل وصول المصعد للأرض حتى لا أتأذى من السَّقطة، وإذا تعلّقتِ بي وصرتِ معي كجسدٍ واحدٍ فستنجين معي.

بدت مُتشككةً فيمَا يقول، ولكن نظرته إلى ساعته جعلتها تحسِمُ أمرها وتخلع جاكت بذلتها الذي يعوقها وتتعلّق بعُنقه وتضع قدميها العاريتين فوق قدميه في حين طَوَّقَ هو وسطها بقوةٍ.

تذكرت شيئا فقالت بسرعة:

- لم تخبرني ما الذي حَلَّ بأسماء؟

صمتَ بُرْهةً ثم قال بحُزنٍ:

- في ليلة عُرسها اكتشف العريس أنها رَجُلٌ.

نظرت له سهام برُعْبٍ وهي تقول:

- يا للشيطانّ إن الموتَ أهونُ مما فعلْتَه بها.

أغمضَ عينيه بحزنٍ قائلًا:

- نعم، أعلمُ ذلك، ولكني كنتُ مجروحًا وقتها، ولم أستطع منع نفسي من عِقابها، هي وعدتني أنها لن تكون لغيري، وأنا تمسَّكتُ بعدها ولكن بطريقة شيطانية.

ثم قال بندمٍ:

- كنتُ أحسبُ أني أعاقبُها عِقابًا بلا دماء، ولكني كنتُ واهمًا.. المسكينة جُنَّتْ من الصدمة فظلت تصرخ ثم ألقتْ بنفسِها من الشُّرفة.. وماتت.

في الثانية التالية انقطع حَبْلُ الجَرِّ الأخير فانهار المصعد دفعةً واحدةً وهو من جالِقٍ.

كان السقوط سريعًا، ولكنه بدا لسهام كدهر كامل، فراحت تصرخ برُعْبٍ، وقد هوى قلبها مع المصعد وأنشبت أظفارها في لحم سالم، وكأنما تخشى أن تتركه ولو لحظةً، ولكنه تحمَّلَ وظَلَّ مُمسكًا بها بقوةٍ في حين صرخت سهام:

- لماذا تنقذُني؟

في اللحظة التالي هَدَّأَ المصعد من سُرعةِ هُبوطه فجأةً حتى توقف تمامًا عند الطابق الأرضي

تشبث بها سالم ومال على أذنها ليهمس فيها:

- أنا لا أنقذك يا عزيزتي، أنا لم أفكر في قتلِك من البداية.

دار عقلها وقد تخشبت ذراعاها حول عُنق سالم، واستمعت لكلماتِه، ولكن عقلها لم يسعفها بفهم ما يُريدُ قولُه إلا عندما صدرت

النغمة المميزة لوصول المصعد إلى الطابق السفلي، ثم انفتح المصعد بسلاسة.

في بهو المبنى الفسيح احتشد جيشٌ من البَشَرِ ليُشاهِدَ ما يحدث.

كان جميع موظفي الشركة ومجلس إدارتها يقفون في انتظار حَدَث جَلَلٍ مثلما بَلَغَهُم عندما تم إحضارهم إلى الشركة في هذه الساعة المتأخرة، الجميع وصلتهم مُكالمات تستدعيهم فورًا والجميع حَضَرَ.

فُتِحَ باب المصعد ليرى الجميع المديرة التنفيذية الصارمة مُتعلقةً بعُنقِ شابٍّ يُطوِّقُها بذراعه، وقد تخففا من ثيابها وأحذيتهما ويقفان مُتعانقين كعاشقين.

انتبهت سهام في تلك اللحظة لما يحدثُ، فحرَّرتْ عُنُقَ سالم، والتفتت إلى الجمع الذين ينظرون إليها باتهامٍ واضحٍ.

كانت أعصابُها قد دُمِّرت تمامًا خلال الساعة الماضية، فلم تتحمل رجلاها حَمْلَها، فسقطت جالسةً مُنكسةً رأسها، فيما بدا كاعترافٍ صريحٍ منها بالجُرْمِ المَشهود.

قال أحد الموظفين وهو يشير لزملائه بالانصراف:

- هيا بنا يا إخوة، ربنا أمر بالستر.

في حين تقدَّمَ رئيس مجلس الإدارة منها وقال بصرامة:

- سأنتظرُ استقالتَك غدًا على مكتبي.

ثم أولاها ظَهْرَه وانصرف مع أعضاء المجلس.

كانت سهام في حالةِ ذُهولٍ تامٍّ مما يحدث، وبعدما مرت به لم تكن قادرة على فعل شيءٍ حتى الدفاع عن نفسها.

كان سالم لا يزال واقفًا في رُكن المصعد، ولم يكن أحدٌ يُعيرُه اهتمامًا، فسهام هي التي خطفت الأضواءَ كلها، حتى ان أحدًا لم يُلاحِظْ وجودَه أصلًا.

انحنى بهدوء يتناول حقيبته وجاكت بذلته ورابطة عُنُقه، وارتدى حذاءه على مَهَلٍ، فرفعت إليه وجهًا أغرقته دموع القَهْرِ وقالت:

- أنت شيطان، أقْسِم أنَّك شيطان.

انحنى عليها بهدوء وهو يقول:

- قلتُ لك أنني لستُ شيطانًا، أنا إنسانٌ مِثْلُك ومِثلُ الجميع، وإن كانت هناك شياطين فهي هنا، وأشار بإصبعه إلى رأسه.

رَفَعَ يَدَهُ لها مُحيِّيًا إياها، ثم توجَّهَ إلى باب الخروج، وهو يُطلِقُ من شفتيه صَفيرًا مُنغَّمًا.

تابعته سهام بعينيها وهو يجتاز باب الخروج.

تساءلت سهام في تلك اللحظة: هل فقدت عَقْلَها من هول الصَّدمات أم أنها بالفعل ترى هذه الأشياء التي تحيط به وتتقافَزَ حوله كما لو كانوا يحتفلون بانتصاره؟

تلك الأشياء التي لم تكن سوى شياطين.

شياطين تَتْبَعُ سَيِّدَها الذي تغترفُ مِنْ أفكارِه.

أفكارِهِ الشَّيطانيَّةِ



29 يناير



(تهيب القوات المسلحة بأبناء مصر الشرفاء بعمل لجان شعبية لحماية الأعراض والممتلكات.. حفظ الله مصر)

***

جرى هذا التنبيه على شريط الأخبار أسفل شاشة التلفاز، وفي وقت متزامن تقريبا تلقى هاتف (طارق) المحمول رسالة مماثلة من جهة لم يكن يتوقع أن تراسله يوما (Armedforces) أي القوات المسلحة.

لا يدري لماذا شعر لحظتها بتوتر، وبذلك الشعور المقيت يزحف إلى قلبه.. الخوف. فبحكم ما تراكم لديه من معرفة، لا يمكن أن يوجه الجيش تنبيها كهذا، إلا في حالة واحدة فقط.. لا يوجد شرطة، لا يوجد رجال أمن يحفظون النظام ويردعون من تسول لهم أنفسهم خرق القوانين العامة.

أحس بأن جبينه يتفصد عرقا برغم برودة الجو، وجف لعابه وهو يتذكر زوجته وأبناءه اللذين تركهم صباحا في المترل.. ترى كيف حالهم الآن؟ هل أحكموا إغلاق باب الشقة جيدا؟ هل نزلت زوجته للسوق لتبتاع شيئا وتركت الصغار في الشقة؟ ياللمصيبة.

أخرج هاتفه المحمول، وأسرع بطلب زوجته.. ولكن هاتفها كان خارج التغطية.. لقد عادت خدمة المحمول منذ قليل، ربما لم تعد بعد خدمة الشبكة التي تتعامل معها زوجته.. هكذا حاول أن يقنع نفسه.

قال لعلاء زميله بالعمل: ما الذي يحدث؟ هل انهارت البلد في ليلة وضحاها؟

قال علاء، الذي لم يكن أقل منه توترا: لا أدري، ولكن الاخبار تتوالى عن انسحاب كامل للشرطة من جميع مواقعها، واحتراق لمعظم الأقسام وسرقة ما بها من أسلحة، وهروب جماعي للمسجونين في جميع سجون الجمهورية، من إسكندرية إلى أسوان.

شحب وجهه وهو يقول: اللهم ارحمنا.. ولماذا تنسحب الشرطة بهذه الطريقة؟ ربما أفهم ما حدث من انسحاب في القاهرة والإسكندرية والسويس، لأنها بؤر مشتعلة، بها اشتباكات مع الثوار.

ولكن ما حال باقي المحافظات، وبخاصة تلك التي كانت هادئة تماما، ولم يحدث بها شيء يذكر؟ ثم كيف هوجمت السجون في ذات

التوقيت، وفي كل مكان؟ إن هذا يفوق قدرات الأفراد، بل ولا حتى قدرات الدول!

قال علاء الذي صار متوترا أكثر: هناك حالات سلب ونهب وبلطجة ومهاجمة للمتلكات في كل أنحاء البلاد، التليفزيون المحلي يذيع مكالمات مباشرة مع أناس يتعرضون لمهاجمات الآن، وهم يستغيثون بمن ينجدهم.

قام طارق، الذي لم يعد يتحمل المزيد وهو يقول: أنا ذاهب إلى المترل حالا، لن أستطيع البقاء هنا وأتركهم يواجهون هذا الهول وحدهم.

قال علاء بتوتر: والعمل؟

أجابه: فليذهب العمل للجحيم.. ما فائدة العمل إذا كان من أعمل لأجلهم يتعرضون للخطر؟..

انصرف بسرعة يتبعه علاء، الذي قال: سأوصلك، لن تجد مواصلات الآن.

خرجا معا، وركبا سيارة علاء.. الشوارع ليست مزدحمة كما هي العادة، ويبدو أن الأخبار عن أعمال العنف والبلطجة جعلت أكثر الناس يقبعون في بيوقم وهم وعائلاقم. السيارة تقطع الطريق في منطقة وسط البلد، وبين وقت وأخر يمرون بسيارة من سيارات الأمن

المركزي، وقد تفحمت وتركت في منتصف الطريق، كما لو كانت نصبا تذكاريا لتخليد ذكرى سقوط نظام.

قابلوا في مسيرهم عددا ضخما من الدبابات والمجترزات، التي تمركزت في الميادين والشوارع الكبرى،وراح أفراد الشرطة العسكرية يحاولون تسيير المرور، أو ملء الفراغ الذي خلفه انسحاب الشرطة.

شعرا ببعض الحرقة في عيونهما وأنفيهما، يبدو أنها بقايا آثار القنابل المسيلة للدموع من معركة الأمس.

الأرصفة على جانبي الطريق شبه خالية.. رجل واقف منتظر الحافلة.. أحد الباعة الجائلين بدأ يشعر باليأس من أن أحدا سيأتي ليشتري منه.. زوجته المتشحة بالسواد تحتضن أولادهما وهي تبكي بحرقة.. و..

ماذا؟؟

– توقف يا علاء.

صرخت عجلات السيارة محتجة على توقفها بهذه الطريقة، والتفت علاء بذعر إلى طارق، الذي ينظر فاغرا فاه إلى خارج السيارة، وقال: ماذا حدث يا طارق؟ لقد افزعتني!

ابتلع ريقه بصعوبة وهو يقول: هناك على جانب الطريق، كانت زوجتي وأبنائي يقفون، وكانت هي تبكي.

نظر علاء إلى حيث ينظر وقال بحيرة: لا يوجد شيء يا طارق.. ما الذي سيجيئ بزوجتك هنا؟ لقد اقترب موعد حظر التجوال.. يبدو أن آثار الغازات المسيلة للدموع قد شوشت على رؤيتك.

قال طارق بتوتر: أنا لا أهذي، لقد رأيتها بوضوح.. ولكنها اختفت في لحظة، كما لو كانت قد تبخرت.

أخرج هاتفه المحمول، وأعاد الاتصال بزوجته، ولكن قابلته الرسالة السخيفة عن أن هاتف زوجته مغلق.

هز رأسه باستسلام وقال: ربما كنت على حق.

انطلق علاء بالسيارة مرة أخرى، والتفت إلى طارق قائلا: لا تقلق، إنه توترك فقط هو الذي..

ولكنه توقف عن الكلام، حين رأى وجه طارق المرتعب وهو ينظر إلى الأمام، فأدار وجهه بسرعة، ليرى ما أثار هلعه إلى هذا الحد، واتسعت عيناه في فزع.

كانت زوجة طارق وابناه يقفان في منتصف الطريق، على بعد أمتار قليلة من السيارة المندفعة نحوهم.. وبسرعة، وبدون تفكير، كانت يد علاء تدير عجلة القيادة، وقدمه تعتصر دواسة الفرامل، ولكن هذه الحركة المباغتة كانت أسرع من أن تستوعبها السيارة،

التي فقدت توازنها، ثم طارت في الهواء وانقلبت، لتتدحرج ثلاث مرات، قبل أن تستقر ساكنة على جانب الطريق.

أحس طارق بأن عظامه قد انسحقت، وشعر بدوار وصداع عنيف يجتاح رأسه.. شعر بتنميل في وجهه، فتح عينيه بصعوبة، وهو يغالب دواره.. كانت الأشياء معكوسة رأسا على عقب. أخذ بضع ثوانٍ قبل أن يفهم أنه هو المعلق في مقعده رأسا على عقب، بفضل حزام الأمان. نظر عن يساره، فوجد علاء هو الآخر معلقًا فاقد الوعي.. مد يده إلى قفل حزامه وفتحه، فسقط من مقعده، ثم راح يزحف خارجا من نافذة السيارة.

كان هناك بعض الناس الذين هبوا بشهامة معتادة لمساعدهما، وراحوا يسحبونه من السيارة، وراح بعضهم يساعد علاء.

الدنيا تدور به وهو يسحب خارج السيارة، ولكنه ميزهم وسط الناس.. زوجته المتشحة بالسواد الباكية، وطفليه اللذين كانا ينظران له بأسى، وأتاه صوهما إلى أذنه كأنما يأتي من بعيد: لا تتركنا.. عد إلينا.

خرج تماما، والتف الناس حوله يفحصونه ويحاولون مساعدته، ولكنه أخذ يتلفت حوله بجنون.. كانت قد اختفت مرة أخرى.. ماذا يحدث؟ أي شيطان هذا الذي يعبث بي؟

كان علاء قد خرج هو الآخر، وراح الناس يحاولون إفاقته، فاندفع طارق نحوه، وانحنى يفحصه، ففتح علاء عينيه ببطء، وندت منه آهة ألم، فتنفس طارق الصعداء، وساعد صديقه على النهوض.

تأوه علاء مرة أخرى ثم قال: زوجتك وأبناؤك.. لقد رأيتهم أنا أيضا.

دق قلب طارق وهو يسأله: رأيتهم؟ إذا فأنا لم أكن أهذي.

كان أكثر الناس قد انفضوا، بعد أن اطمئنوا على سلامتهما، وبقي بعضهم ليساعدوهما إن احتاجا شيئا، فشكراهم، وتنحى طارق بعلاء جانبا وهو يسأله: ماذا رأيت بالضبط؟

أجابه: كانت زوجتك وأبناءك يقفون في منتصف الطريق، فحاولت تفاديهم و..

شحب وجهه وقال: ولكن السيارة لم تتفاداهم في الوقت المناسب لقد.....

لم يدر ما يقول فأضاف: لقد عبرت خلالهم.

ضيق طارق عينيه وقال ببطء: وفي رأيك، ماذا يعني هذا؟

ابتلع علاء ريقه، ولم يدر بما يجيب؛ وإن كانت الإجابة واضحة على وجهه. ولكنه أشاح بوجهه وهو يقول: لا أدري، هذا أمر غريب.. هذا فقط ما أنا متأكد منه.

ثم التفت إلى طارق قائلا: المهم الآن أن نصل لبيتك بسرعة.

تلفت طارق حوله وقال: لن نجد مواصلة تقلنا الآن، علينا أن نكمل مشيا.. عموما لم يبق الكثير.

انطلق الاثنان يجدان في السير، فأشار طارق إلى طريق جانبي وقال: هذا طريق مختصر.

انعطف الاثنان في الطريق الجانبي.. وتجمدا

بمجرد أن انعطفا إلى الطريق، وجدا زوجة طارق والطفلين يقفون أمامهما بنفس الهيئة.. نفس الثوب ونفس البكاء ونفس الكلمات.

– عد إلينا.. لا تتركنا

جف لعاب طارق، وقال بصوت هامس لعلاء: هل ترى ما أراه؟

هز علاء رأسه، فحاول طارق التقدم ناحيتهم، ولكن علاء أمسك بذراعه مانعا إياه، وهز رأسه علامة النفي وقال: إنها ليست هي.. أنت تعرف هذا.

اغرورقت عينا طارق بالدموع، والتفت إلى زوجته وأبنائه وقال: ماذا يعني هذا؟.. ماذا حدث؟

نظرت إليه زوجته بحزن، وقالت بصوتها الآتي من بعيد: لا تدعه يأخذنا منك.. عد إلينا

تساءل طارق بسرعة: من.. من هذا الذي يريد أخذكم؟

نظرت إليه طويلا بصمت، قبل أن ترفع يدها وتشير بأصبعها إلى ما خلف ظهره، وقالت: هذا.

التفت الاثنان إلى ما خلف ظهريهما.. لم يفهما في البداية، ولكن الإجابة أتتهم سريعا

لم يستطيعا تبين ما هذا الشيء بالضبط.. كان كدخان أسود مظلم، نبع من العدم وراح يغمر كل شيء.. البيوت، السيارات، الشوارع، الناس.. ابتلعهم في كيانه، وراح ينمو أكثر، ويغطي مساحات أوسع. كان يبدو كدخان، ولكنه كان أثقل وأكثر ظلمة.

لم يفهما شيئا، وقال طارق متسائلا: ما هذا بالضبط؟

لم يكن علاء يقل عنه دهشة وعدم فهم، ولم يملك حتى كلمة يرد بها عليه، فتابع طارق متسائلا: هل هي السحابة السوداء.. أم حريق ما.. أم ربما هو سلاح جديد تستخدمه الشرطة ضد المتظاهرين؟

مساحة الدخان تزداد، وفي كل ثانية يغزو أرضا جديدة.. وراح يقترب منهما، فتكلم علاء بتوتر: أعتقد أننا يجب أن نتحرك الآن.

وافقه طارق، فالتفتا إلى الطريق مرة أخرى، حيث كانت تقف زوجة طارق، التي اختفت كالعادة، فانطلقا يجريان مبتعدين عن

الدخان بسرعة. عض طارق شفتيه بحسرة وهو يقول: هل تظن أنهم... ماتوا؟

فهم علاء السؤال، ولكنه لم يجب واستمر في الجري؛ ولكن طارق توقف. التفت إليه علاء متسائلا: لماذا توقفت؟

رد في حسرة: لم يعد هناك ما أخاف منه بعد الآن. عائلتي ماتت وصاروا أشباحا،فلمن أعيش بعد اليوم؟ لو كان هذا الشيء سيقتلني، فلا بأس.. على الأقل سألحق بعائلتي.

قال علاء بغضب: إيها الأحمق نحن لم نتأكد بعد من شيء، أكيد هناك تفسير منطقي لكل ما يحدث، لا تستسلم الآن.

لا تدعه يأخذنا منك.. عد إلينا.

أخذ هذا النداء يتردد من بعيد، فالتفتا إلى مصدره.. لم يستطيعا رؤية شيء، ولكن طارق كان قد حسم أمره، فقال بحزم: هيا بنا.

وانطلق هو وصديقه يجريان مرة أخرى مبتعدين عن الدخان، الذي كان يغطي الآن قلب المدينة بالكامل، والذي كما لو كان ارتج في غضب، عندما عاد طارق مرة أخرى للعدو مبتعدا عنه.

كان طارق وعلاء ينعطفان في أحد الأزقة، عندما باغتتهما فجأة مجموعة من الرجال، التفوا حولهما ممسكين بالعديد من الأسلحة البيضاء، وكان مع بعضهم أسلحة نارية محلية الصنع، وقال أحدهم: يبدو أننا وقعنا على صيد سمين.

وقال الآخر: أخرجا ما معكما بهدوء وإلا فلن تخرجا من هنا أحياء.

قال طارق بتوتر: من المستحسن أن تهربوا أنتم أيضا فهو قادم خلفنا.

ضحك الرجال وقال أحدهم: من هذا الذي يجري خلفكم؟ ضابط شرطة؟

انفجر الرجال في الضحك، ولكنهم توقفوا حين شاهدوا الدخان يدخل إلى الزقاق ويتقدم نحوهم.

استغل الاثنان تشتت ذهن الرجال، فانطلقا من وسطهم يجريان، ولكن أحد الرجال صوب سلاحه الناري نحو علاء فأصابه في ساقه، فسقط على الأرض يصرخ من الألم.

كان أحد الرجال يتقدم ببطء ناحية الدخان الثقيل، الذي يتقدم ناحيتهم، وضيق عينيه محاولا اختراق حجب الدخان لمعرفة ما يخفيه.

وهنا، امتدت أربعة أذرع مخلبية مغطاة بالحراشيف من داخل الدخان، لتختطف الرجل الذي لم يدرك حتى ما جرى له، ولم يطلق صرخة رعب.. وبعد ثانية واحدة، قذف الدخان ذلك الشيء الذي تدحرج خارج الدخان، ليسقط تحت أقدام الرجال، الذين نظروا بذعر إلى رأس زميلهم المقطوعة والممتلئة بالجروح.

كان هول الصدمة والرعب أكبر من فهم هؤلاء الرعاع، فلم يستطيعوا فعل شيء حتى ابتلعهم الدخان.

عاد طارق بسرعة إلى صديقه الجريح محاولا مساعدته على النهوض، حين تناهى إلى مسامعهما صرخات الرجال المختلطة بأصوات مخيفة، كما لو كانت قبيلة من الأسود في عملية صيد. حاول علاء التحامل على نفسه، وبمساعدة طارق حاول القيام، ولكنه لم يستطع، فقال وهو يلهث:

– اهرب أنت يا طارق ودعني.

هز طارق رأسه بعنف وهو يقول: لن أتركك أبدا.

الدخان يزحف نحوهما ويقترب، وطارق يجاهد لحمل صديقه، الذي راح يصرخ فيه:

– دعني واهرب أنت.

نظر إليه طارق بحسرة، وعض شفته بحزن وهو يقول: ولكن..

الدخان يدركهم الآن، وراح يبتلع علاء، الذي دفع طارق بعيدا وهو يصرخ:

– ابتعد، اهرب، عد إلى عائلتك.

قام طارق واقفا، ونظر نظرة أخيرة إلى صديقه، قبل أن ينطلق مبتعدا بسرعة وهو يقول:

- الوداع يا صديقي.

اهتز الدخان كأنما هو غاضب لفرار طارق منه. كان قد اقترب كثيرا من شارعه حيث يقطن، وكأنما الدخان قد فهم ذلك، فراح ينتشر أسرع كأنما يعدو خلفه، بل حقيقة لقد تحولت مقدمة الدخان إلى ما يشبه العمالقة، الذين راحو يعدون وراء طارق، ومن حلوقهم راحوا يزأرون بصوت مخيف.

وصل طارق إلى شارعه الذي وقف على ناصيته عدد من الشباب بالعصي والأسلحة البيضاء لحمايته من أي هجوم متوقع من البلطجية.. اندفع من بينهم وسأله احدهم:

- خير يا أستاذ طارق ماذا حدث؟

التفت إليهم وصرخ:

- اهربوا بسرعة، إنهم قادمون.

التفتوا إلى حيث يشير، ولكنهم لم يأخذوا فرصة ليفهموا، حين دهمهم عمالقة الدخان الذين ابتلعوهم، وراحوا يغزون الشارع، فاندفع طارق إلى داخل بيته، وأغلق بوابته الخارجية جيدا، واندفع إلى مدخل البناية، ونظر إلى أعلى السلم، ليجد زوجته واقفة بنفس المشهد، وهي ما تزال تردد: عد إلينا.. لا تدعه يأخذنا منك.

اندفع صاعدا السلم بسرعة، ومن وراءه تحطمت بوابة البناية الحديدية، وانساب الدخان الكثيف إلى الداخل، وراح يطارده صاعدا

خلفه. راح طارق يلهث بعنف وهو يصعد السلم بكل ما أوتي من قوه.. لم يبق الكثير لم يبق الكثير.. أخذ يردد هذه الكلمة في نفسه.

أخيرا وصل إلى باب شقته.. لم يبق الكثير.. لم يبق الكثير

كان الدخان يصعد خلفه، وقد تشكلت مقدمته كوجه غاضب ضخم متقد العيون، فتح فاه كالقبر وهو يتقدم من طارق مستعدا لابتلاعه.

أخرج طارق مفاتيحه بيد مرتجفة.. لم يبق الكثير لم يبق الكثير..

انتقى مفتاح شقته ودسه بسرعة في ثقب الباب، في نفس اللحظة التي وصل إليه فيها الدخان وهم بابتلاعه.. أدار المفتاح.. وفي آخر لحظه انفتح الباب.

بهر الضوء عينا طارق فأغمضهما..ثم راح يفتحهما ببطء، ويديرهما فيما حوله

كان راقدا على سرير أبيض في غرفة ذات حوائط بيضاء، وقد وقف طبيب بمعطفه المميز يفحص عينيه بقلم ضوئي، ثم ابتسم وهو يقول: حمدا لله على سلامتك يا بطل.

تلفت طارق حوله غير فاهم، ولكنه لمح هؤلاء الواقفين في زاوية الغرفة.. أولاده الصغار، والمرأة المتشحة بالسواد بعيونها الباكية، والتي

اندفعت نحوه غير مصدقة وألقت نفسها عليه تعانقه وهي تقول: حمدا لله على سلامتك.

منعها الطبيب برفق وهو يقول: ليس الآن يا سيدتي لقد حدثت الآن معجزه بنجاة زوجك، ولا نريد أن نفسد هذا الآمر.

ابتسمت وهزت رأسها متفهمة، والتفتت إلى طارق قائلة: حمدا لله على سلامتك يا طارق

نظر إليها غير فاهم وهو يتساءل بحيرة: طارق.. طارق من؟

نظرت إليه بخوف وهي تقول: أنت طارق.. ألا تذكر؟

هز رأسه نفيا وهو يقول: لا أذكر أي شيء.. كل ما أذكره أنك زوجتي وهؤلاء أبنائي وأنني أحبكم جدا.. ولكني لا أذكر شيئا آخر.

دمعت عينا زوجته، فأشار إليها الطبيب لتخرج الآن حتى يتم الفحص.

بعد نصف ساعة، كانت جالسة مع الطبيب، الذي قال: أنت تعلمين بالطبع حالة زوجك، منذ أصيب بطلقة قناص في الرأس في أحداث جمعة الغضب. ولكن الرصاصة لم تصب المخ مباشرة –وهذا من فضل الله– ولكنها أصابته بنزيف في المخ.. لقد حاولنا السيطرة على النزيف ولكن بقعة الدم اتسعت لتغطي مراكز الذاكره في المخ.

قالت زوجته متسائلة: تعني أنه فقد الذاكرة؟

أجابها: نعم، وللأسف فمراكز الذاكرة القديمة تلفت، ولا مجال لاستعادتها مرة أخرى، ولكن لا بأس يمكنكم أن تصنعوا معا ذكرياتكم الجديدة.. كثير من الناس يتمنى لو يولد من جديد.

هزت رأسها بتفهم، وابتسمت بحزن، فتابع الطبيب.

ولكن العجيب أنه برغم تلف مراكز الذاكرة وفقدانه لذكرياته كلها، حتى اسمه وحتى صديقه الصدوق والذي أصيب معه في نفس الوقت ولم تكتب له النجاة، إلا أنه تذكرك أنت والطفلين.. لقد بدا كما لو كان يحمي ذكرياته عنكم، وكأنما لا يهمه شيء في هذه الدنيا غيركم.

ابتسمت وهي تقول: ربما لأنه يعتبرنا كل ما له في هذه الحياة، فإذا ضعنا منه فليس لحياته معنى.

ثم تنهدت وهي تقول: لقد كنت مصيبا يا دكتور. إن كثير من الناس يتمنى أن يولد من جديد. لقد ولد طارق من جديد، بل ولدت بلادنا كلها من جديد، ومن اليوم فلن ننظر لما فقدناه.

بل سنصنع معا ذكرياتنا الجديدة

والتي أرجو أن تكون سعيدة

صُدفة!



من منا لا يؤمن بالقدر؟

بالتأكيد كل من يعتقد في دين هو مؤمن بالقدر بشكل أو بآخر.. ولكن أحيانا تأتي ترتيبات القدر بمواقف وأحداث تترك العقول فى حيرة.

من أغرب ترتيبات القدر تلك المواقف التي نطلق عليها (المصادفات) والتي تجعل الحواجب ترتفع والعيون تتسع انبهارا ودهشة من توافقات القدر العجيبة.. اعرف رجلا ولد في الأول من أكتوبر، والغريب أن وفاته كانت في الأول من اكتوبر أيضا، ولكن بعد 80 عاما.. صدفة!!

لعلنا سمعنا عن طويس، الذي تضرب به العرب المثل في الشؤم، فيقولون (أشأم من طويس) رجل ولد يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وفطم يوم وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبلغ الحلم

يوم وفاة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وتزوج يوم توفي عثمان ابن عفان رضي الله عنه، وولد له ولد يوم وفاة علي ابن ابي طالب رضي الله عنه.. صدفة!!

بإمكاني أن أسرد لكم مئات ومئات من القصص الطريفة والترتيبات العجيبة، التي تجعل الفكوك تتدلى انبهارا..ولكن على غرابة كل هذه القصص، فدائما في النهاية الفكوك تنغلق والعيون تضيق والحواجب تعود لمكانها الطبيعي فوق الجفون، ثم يقول المستمع في حكمة.. صدفة!!

صدفة؟

حسنا.

سأحكي لكم اليوم حكاية بسيطة، وقعت أحداثها في الأعوام الأخيرة.. سأذكرها كما حكاها لي من عايشها، وأترك لكم أن تعرضوا أحداثها على القانون العبقري الذي دائما يكون له كلمة الفصل في مثل هذه الحكايات.. أقصد قانون الصدفة.

وبعد أن أنتهي.. وبعد أن تنغلق الفكوك وتضيق الأعين وتستقر الحواجب.. هل سأجد من يتراجع في مقعده في حكمه، ويجرؤ أن ينطق بتلك الكلمة السحرية؟..

صدفة!!!

شارع برودواي.. شارع الفن والثقافة والمسارح، وكذلك عصابات المافيا.. يعتبر من أهم شوارع منهاتن بولاية نيويورك، يصل ما بين مبنى بلدية نيويورك جنوبا وحتى حي هارلم في الشمال.. هو أكثر شوارع أمريكا ازدحاما، إن لم يكن أكثر شوارع العالم، زاره في 2005 فقط أكثر من عشرة ملايين إنسان.

انطلقت السيارة المميزة بلونيها الأبيض والأسود والأضواء العلوية والشعار المميز لشرطة نيويورك، تقطع شارع برودواي وفيها كان الكابتن (آدم ميلر) جالسا بجوار السائق، الذي زاد من سرعة السيارة.. كان آدم هادئا لا يبدو عليه أثر لانفعال ولا حتى ترقب، رغم أنه كان في طريقه لمعاينة مسرح جريمة قتل، فهو يعمل في برودواي منذ فترة، واعتاد مثل هذه الأمور، حتى لم يعد شيء يثير دهشته، فبرودواي منطقة جريمة كما هي منطقة ترفيهية. معظم هذه الملاهي والمسارح مملوكة للمافيا، فلا غرابة ألا يمر اسبوع دون جريمة قتل جديدة. إنه في الخمسين من عمره، لذا فقد مر بالكثير حتى صار كل شيء مكررًا بالنسبه له.

تشاغل آدم بمراقبة طائرة ركاب تعبر من فوقه، وقد بدت كطائر الرخ المهول في طريقها للهبوط في مطار (ج. ف. كيندي) والذي يبعد بضعة كيلو مترات ناحية الغرب.

وصلت السيارة إلى زقاق جانبي، فتوقف السائق وهبط آدم، ليجد في انتظاره العديد من سيارات الشرطة والعديد من الرجال الذين راحوا يضعون ذلك الشريط الأصفر المميز، والذي يعني ممنوع الدخول هنا مسرح جريمة.

دخل إلى الزقاق الضيق المسدود في نهايته، وراح يمشي بحذر حتى لا يطأ على تلك الدوائر البيضاء التي تحيط بأشياء صغيرة، ولفت انتباهه جزء من أسفلت الطريق متهشم بقوة، وقد نال حظه من بعض الدماء واللحم المفري... قطع ملابس، بقع من الدماء، وفي النهاية ملتصقا بالجدار تكوم جسدان في وضعين مستحيلين تشريحيا!!

الأذرع والسيقان ملتفة بشكل مقزز، والعنقان دقًا، والرأسان تقريبا هتكا تماما، حتى لم يعد من الممكن التعرف عليهم بمجرد النظر.

تناول قفازًا بلاستيكيا وارتداه على عجل، ثم نظر إلى أحد الضباط وهو يتساءل:

– ماذا لدينا هنا؟

قال الضابط محاولا توصيل المعلومات بطريقة واضحة:

– الضحايا رجلان في الثلاثينات تقريب،ا الجريمة اكتشفت اليوم صباحا، مما يعني أنها ارتكبت في وقت ما ليلة الأمس، ولكن هذا الزقاق ضعيف الإنارة، لذا فلم يلاحظ أحد الجثتين إلا صباحا.. لا يوجد شهود عيان، ولم يلاحظ أحد شيئا رغم بشاعة حالة الجثث.

أخرج آدم سيجارة من علبته، وأشعلها بقداحة راح يفتحها ويغلقها بطريقة رتيبة، كأنما تساعده على التفكير.

– هل تعرفتم على هوية الضحايا؟

أجابه الضابط وهو يشير إلى إحدى الجثتين، ويضع في يده هوية أمريكية، تلوثت أطرافها بالدماء قائلا: الأول هنا يدعى (حسام سلامة) من أصل مصري، يحمل جنسية أمريكية، يبدو أنه مقيم في أمريكا من فترة لحصوله على الجنسية.

ثم ناوله بطاقة بلاستيكية تحمل وجه شاب بالأبيض والأسود، وجوارها بيانات بلغة ميز أنها العربية وإن لم يفهمها. أدار البطاقة، ليرى في الخلفية صورة لامعة لقناع توت عنخ أمون بجوار صورة لأخناتون وزوجته يتعبدان للشمس آتون، وقال:

– الآخر أيضا يبدو أنه مصري. سنستعين بمن يعرف اللغة العربية لنتعرف على شخصيته.

تساءل آدم:

– هل عرفتم كيف تمت الجريمة؟

قال الضابط:

– وفقا لوضع الجثث، وتناثر بعض الأشلاء على مسافة عشرة أمتار حتى الجدار هاهنا، فهذا يبدو كصدمة شاحنة قوية مسرعة.

قال آدم باستخفاف:

- وكيف ستأتي شاحنة مسرعة لزقاق ضيق، لم أستطع دخوله بسيارة الشرطة العادية، فما بالك بشاحنة ضخمة؟.. هذا مستبعد.

فتح قداحته عدة مرات، ثم هز رأسه بشرود وهو ينظر إلى الجثتين، ثم أشار إلى الجثة الثانية وهو يقول: أين الدماء؟

نظر الضابط إلى ما يشير إليه وهو غير فاهم، فتقدم آدم وانحنى يفحص الجسد قائلا:

- الجثة الأولى -كما ترى- راقدة وسط بركة من الدماء، أما هذه، فرغم هتك الجسد والرأس والمخ المتناثر هنا، إلا أنه لا أثر للدماء حوله.

انتبه الضابط لهذه الملحوظة، فقال بحيرة: هل تعني أنه لم يقتل هنا، وأنه قد نقل إلى هنا من مكان آخر؟

قال ادام وهو يدس يده أسفل الجثة: ربما، أو..

ثم أخرج يده ونظر إلى البلل الموجود على القفاز وهو يقول: مياه؟

ثم أضاف وهو يحاول أن يفهم:

- توجد مياه تحت الجثة، والملابس الملاصقة للأرض مبتلة.

فسأل الضابط: وما الذي يعنيه هذا؟

هز كتفيه ثم قام قائلا:

– لا أدري بعد، ولكن هذه الجريمة تروقني.

اتجه مرة أخرى عائدًا إلى سيارته وهو يخلع القفاز، ويقول بلهجة سريعة متقمصا دور (تومي لي جونز): أرسلوا الجثث للفحص، أريد تقرير الطب الشرعي اليوم على مكتبي.. أرسل للسفارة المصرية للاستعلام عن هذين الاثنين، أريد استجوابًا كاملاً لكل سكان البنايات القريبة وأصحاب المحال التجارية والملاهي إذا كان أحدهم قد رأى شيء.

ثم التفت إلى رجاله مرة أخرى قائلا:

– أريد حلا لهذه القضية.. وبسرعة.

وانطلقت السيارة عائدة إلى القسم، تاركا الرجال ينفذون أوامره.

***

بيت قديم في حي السيدة زينب

رن جرس الباب في بيت (أكرم) فأسرعت والدته بفتحه، لتجد جارتها (أم حسام) واقفة على الباب، وقد بدا عليها التوتر الشديد، فقالت لها محيية: مرحبا بك يا أم حسام تفضلي.

دخلت المرأة شاحبة الوجه وهي تقول لها: اعذريني يا أم أكرم، فأنا لم أنم منذ البارحة.

قالت لها أم أكرم: خيرا؟ ماذا جرى؟ هل حسام بخير؟

قالت: حسام لم يعد البيت بالأمس.. لقد خرج منذ صباح أمس ولم يعد حتى الآن.. أين أكرم؟ أريد أن أسأله إذا كان يعرف مكانه.

خرج أكرم مسرعا من غرفته في تلك اللحظة، وهو يقول: ماذا هنالك يا خالتي؟

فسألته منهارة: حسام يا بني.. حسام لم يعد من الأمس هل تعرف مكانه؟

تصلب وجه أكرم، وبدا الانزعاج عليه، ثم أشاح بوجهه وهو يقول: أنا لم أخرج منذ الأمس يا خالتي، ولم أر حسام مطلقا.

بدا الشك عليها قليلا، ثم هزت رأسها بتفهم، واستأذنت خارجة، وأم أكرم تقوم بالطقوس المصرية المعتادة من نوعية: "الغدا جاهز" أو "لم تشربي شيئا" أو "لا تنسي أن تطمئنينا على حسام" والأم تغمغم ببعض الكلمات غير المفهومة. عادت أمه وسألته بحيرة: ما الأمر يا أكرم؟.. هل تعرف شيئا؟

أشاح بوجهه وهو يعود إلى غرفته، وكأنما يهرب من عيون أمه قائلا: أي شيء يا أمي؟ وهل لو كنت أعلم شيئا، كنت سأتركها حائرة هكذا؟

ثم دلف إلى غرفته، وأغلق بابها على نفسه، ثم قطب جبينه وهو يقول بغضب: فعلها.

المجنون فعلها!

***

– البيانات التي طلبتها وصلت من السفارة يا سيدي، وكذلك بيانات من الجوازات وشئون المهاجرين.

توقف آدم عن فتح وغلق القداحة الخاصة به، وهو يرفع عينيه بتساؤل لرجله الذي أمسك ببضع أوراق، وقال له:

– اقرأ عليَّ بصوت مرتفع.

تنحنح الضابط، قبل أن يقرأ عليه بصوت مسموع: الأول يدعى: (حسام سلامة) 31 سنة مصري الأصل، جاء إلى أمريكا منذ 10 سنوات، وحصل على الجنسية منذ 6 سنوات، عن طريق زواجه بأمريكية تكبره بـــ 30 سنة.. له سجل إجرامي مشاجرات وسرقات وتعاطي مخدرات، آخر زيارة له لمصر كانت منذ شهرين، وعاد بعدها من حوالي شهر.

ثم توقف قليلا وهو يقرأ بيانات الثاني، فرفع آدم عينه إليه متسائلا:

- ماذا؟ أكمل بيانات الثاني.

هز الرجل رأسه، ثم بدأ في القراءة:

- الثاني هو (حسام سليمان) مصري 31 سنة، لم يأتِ إلى أمريكا أبدًا.

توقف الرجل عن الكلام، وطوى الأوراق، فنظر إليه آدم بدهشة قائلا: أكمل.

فقال الرجل: انتهى يا سيدي.

قال آدم: متى دخل أمريكا؟

قال الرجل: لم يدخل يا سيدي. فالجوازات لم تسجل دخوله نهائيا، وبالاستعلام من الخارجية المصرية، أفادوا أنه لم يغادر مصر في حياته أبدا وأن المذكور حتى لا يحمل جواز سفر.

ضيق آدم بين حاجبيه، وقام من على مكتبه، ووقف ينظر من نافذته إلى الشارع، وأخذ يعبث بقداحته مرة أخرى، وهو يستوعب ما لديه من معلومات.

حسام سلامة.. حسام سليمان.. الاسمان متشابهان لدرجة مريبة.. صدفة!

الاثنان مصريان وفي الـــ **31** من العمر.. صدفة!

الاثنان وجدا مقتولان في زقاق بشارع برودواي بطريقة بشعة، على بعد آلاف الكيلومترات من موطنهم الأصلي.. صدفة!

ما معنى أن الثاني لم يدخل أمريكا على الإطلاق؟ حتى وإن كان ذلك ما تقوله الأوراق الرسمية، فهناك جثة ملموسة تقول العكس.

التفت إلى رجله وهو يلقي عليه الأوامر بطريقة (جونز) المشهورة: ربما لم تكن هذه الجثة للمدعو حسام سليمان، ولكن وجود هويته بها قد أوهمنا بذلك.

أرسلوا صورة من بصماته إلى القاهرة، مع عينة من حمضه النووي.. أريد تأكيدًا على مطابقة هوية القتيل بالمدعو (حسام سليمان).

ثم رفع صوته موجها حديثه لرجاله، الذين يروحون ويجيئون: هل وصل تقرير الطبيب الشرعي؟

أجابة أحدهم: ليس بعد يا سيدي، سيصل خلال دقائق.

في حين تقدم منه آخر، ووضع أمامه كيسا بلاستيكيا قوي من المخصصة لحفظ الأدلة وهو يقول: هذه هي المتعلقات التي وجدت مع القتيلين.

نظر آدم إلى المحتويات نظرة فاحصة.. حافظتين من الجلد، مفاتيح، هاتف محطم، ورزمة من الدولارات.

أشار آدم إلى الدولارات متسائلا: ما هذا؟

قال الرجل: 20 ألف دولار يا سيدي، كانوا بحوزة الضحية الأولى (حسام سلامة).

فكر آدم قليلا ثم قال: ترى لماذا يحمل شخص مثل حسام مبلغًا مثل هذا، في زقاق مظلم، بعد منتصف الليل؟

قطع تفكيره الملف الذي وضع أمامه، وصوت أحد رجاله يقول: تقرير الطبيب الشرعي..لقد أخبرني أن أعطيه لك على وجه السرعة، وقال لي إنك ستجد فيه مفاجأة.

فض آدم الملف بسرعة وأخرج الأوراق، وأخذ يلتهم السطور بعينيه، ثم قطب جبينه وهو يقول بصوت خافت:كنت أتوقع شيئا كهذا.

سأله الرجل: هل من جديد؟

قال بشرود: الطبيب الشرعي حدد وفاة حسام سلامة بين الثانية عشر والواحدة، ليلة الأمس.. أما حسام سليمان فوفاته قبل هذا بـــ 12 ساعة على الأقل.

قال الرجل: معنى هذا أن الجثة تم نقلها إلى الزقاق، أما القتل فحدث في مكان آخر.

قال آدم: تقرير الطبيب الشرعي يقول إن حسام سليمان مات مختنقا بنقص الأكسجين كما قال إن خلايا جسده تهشمت مثل الزجاج، وهذا لا يحدث إلا إذا كان الجسد مجمد تماما، ثم تعرض لصدمه عنيفة.

حاول الرجل تكوين نظرية من خلال المعلومات: بمعنى أن من قتله خنقه أولا، ثم احتفظ بجسده في ثلاجة قوية لتجميد اللحوم، ثم قام بتحطيمه بعد ذلك.

ثم تساءل: وماذا عن الأول؟

أجابه آدم: لقد مات نتيجة صدمة عنيفة، تسببت في تكسر معظم عظام الجسد وتحطم الجمجمة وهتك المخ والعديد من الأجهزة الداخلية.

قال الرجل: عدنا مرة أخرى لنظرية الشاحنة.

ثم تساءل: ما الذي يمكن أن يجمع بين هاتين الجريمتين؟

قال آدم: نعم عندك حق..

ما الذي يمكن أن يجمع بينهما؟

***

الأيام التالية حملت لآدم مزيدا من المفاجآت، التي زادت من تعقيد القضية.. الرد عن تأكيد هوية القتيل وصل من القاهرة، ليؤكد أن هذا هو بالفعل حسام سليمان، ولكن مع النتيجة كانت هناك مفاجأة أخرى، هناك بلاغ من والدة حسام عن تغيبه قبل يوم واحد من اكتشاف جثته في زقاق بنيويورك..كانت رأس آدم تموج بالأفكار المتناقضة.

كيف وصل حسام سليمان إلى أمريكا، إن كانت كل المطارات والموانئ لم تسجل دخوله مطلقا؟

وفقا لتاريخ تغيبه، فهو نفسه تاريخ وفاته، وفقا لتقرير الطب الشرعي، فهل معنى هذا أنه مات في مصر وحمل في ثلاجة تجميد إلى أمريكا، ثم وضع في هذا الزقاق وتم تحطيمه مجمدا؟.. هل هذا يعقل؟

وحسام سلامة هو الآخر.. ما الذي كان يفعله في هذا الزقاق بعد منتصف الليل، وبحوزته 20 ألف دولار؟

وكيف فات من قتله أن يأخذ منه المال.. إلا لو كان الدافع للقتل ليس السرقة؟

ما معنى كل هذا؟ وما الذي يربطها ببعض؟

(فرانكو رودريجو).

انتبه آدم من أفكاره على صوت مساعده، الذي قال بظفر: الأمر يتعلق بفرانكو رودريجو.

آدم يعرف فرانكو جيدا، فهو أحد الأسماء المشهورة في شارع برودواي.. بالأصح، في عالم الجريمة.. هو خليط من تجارة المخدرات وإدارة صالات القمار والدعارة، وبالطبع فلا شيء يدينه رغم معرفة الجميع بنشاطه.. ثلاث أو أربع جثث من التي حقق فيها في شارع برودواي كان على يقين أن قاتلهم فرانكو، ولكن -كالعادة- فلا يوجد شيء يدينه.

- ماذا تعني؟

تساءل آدم، فقال مساعده:

- عثرنا على شاهد رأى شيئا ما يتعلق بالجريمة.

أشار المساعد إلى رجل يقف بعيدا وينظر حوله برهبة.. كان ممزق الثياب متسخها، أشعث الرأس واللحية، ويرتدي قلنصوة صوفية متسخة.

فقال آدم: أهو أحد متشردي نيويورك!

فهز رأسه في حماس قائلا:

- نعم، لقد كان يبحث عن عشائه في صناديق القمامه ليلة أمس، حينما رأى شيئا مهما.

فأشار إليه آدم ليتقدم، فتقدم إليه برهبة، ووقف أمامه متلعثما، فعاجله آدم:

- ماذا رأيت بالضبط؟

غمغم بصوت مضطرب، بأشياء لم يفهمها آدم، فقاطعه صائحا:

- ارفع صوتك وتكلم بوضوح.

امتقع الرجل، ثم رفع من نبرة صوته قائلا:

- في تلك الليلة كنت أبحث في صندوق قريب من الزقاق.. لقد كان صندوقا عامرا بأشياء جميلة، فسكان برودواي مترفين يلقون في القمامة...

قاطعه آدم بملل:

- وبعد؟

تلعثم الرجل لحظة، ثم قال:

- جاء ذلك الرجل.. شاب في الثلاثينات، يحكم إغلاق معطفه، ويبدو عليه التوتر، توقف أمام الزقاق لحظات بترقب، ثم دخل إليه. لم ألق بالا، وأكملت البحث في القمامة الغنية بالأطعمة الشهية..

نظر إليه آدم نظرة ألجمته، فتابع: ثم بعد دقيقة، توقفت سيارة ونزل منها ثلاثة رجال، ميزت منهم السيد رودريجو، وتوجهوا إلى

الزقاق. ولكن قبل أن يصلوا إليه بخطوة، توقفوا وتبادلوا النظرات، ثم اندفعوا إلى الزقاق جريا، كأنما سمعوا شيئا ما لم أسمعه، لأني كنت بعيدا ومشغولا بأصوات الضوضاء القادمة من أكياس القمامة البلاستيكية عند تقليبها.. هل تعرف أن صوت هذه الأكياس حين يختلط بصوت الطائرات العابرة فوق برودواي، فهي تبدو كمقطوعة موســـ.. آه نعم رودريجو.. بعد دقيقة أو دقيقتين من دخول الرجال إلى الزقاق، عادوا مرة أخرى مسرعين، وركبوا السيارة وانطلقوا.

أنا لم أعر الأمر بالا، وأكملت رحلة البحث عن عشائي. ولكن في اليوم التالي سمعت عن جريمة قتل حدثت في الزقاق، فتذكرت هذه الواقعة.

نظر إليه آدم لحظات بشرود، ثم تناول معطفه وارتداه على عجل وهو يقول:

– أنا ذاهب إلى رودريجو.

اضطرب مساعده وهو يقول:

– ولكن يا سيدي نحن بحاجة إلى أمر من القاضي.. و

قاطعه آدم:

– ألم تفهم بعد؟ رودريجو لم يفعلها.. أنا ذاهب لأسأله عن شيء آخر.

ثم اتجه ناحية الخارج وهو يقول دون أن يلتفت:

– اشتري غداء لهذا الرجل، واعطه عشرين دولار، واصرفه.

امتقع وجه مساعده، في حين اتسعت ابتسامة المتشرد، فبدت أسنانه الصفراء، والتفت إلى المساعد بجزل وهو يفرك يديه في ترقب للمكافأة.

***

كان رودريجو معتادا على تناول إفطاره في ذلك المطعم في برودواي، فهو رجل عملي لا وقت لديه لترف الوجبات المترلية. صلب هو، ضرسته الحياة وتركت آثارها في وجهه وجسده.. رحلة طويلة منذ أن كان طفلا صغيرا، يسرق المحافظ في الحافلات، وحتى صار من كبار مجرمي برودواي.

فتح باب المطعم ودلف منه آدم، الذي توجه ببساطة إلى مائدة رودريجو، غير عابئ بالرجلين اللذين يجلسان على المائدة المجاورة، واللذين حاولا القيام لمنعه من التقدم، ولكن إشارة من يد رودريجو أبقتهما في مكانهما. ثم رفع رأسه إلى آدم، الذي توقف أمامه قائلا:

– كابتن آدم.. منذ متى لم نلتق؟

ثم أشار إليه بالجلوس، فجلس ببساطة وهو يقول:

– منذ مقتل دانيال ماثيو.

ثم ضيق إصبعيه السبابة والإبهام أمام عينيه وهو يقول:

- لقد كنت بهذا القرب من الإيقاع بك وقتها.

ابتسم رودريجو وهو يضع مزيدا من الطعام في فمه، وقال:

- بماذا أستطيع أن أخدمك يا كابتن.

ابتسم آدم وهو يضغط على الحروف قائلا:

- حسام سلامة.

تصلب وجه رودريجو، وتوقف عن مضغ الطعام لحظات، ثم تابع مرة أخرى وهو يقول: من هذا؟

ضحك آدم بصوت عالٍ وهو يقول:

- أنت كاذب سيئ يا عزيزي رودريجو، فوجهك فضحك.

توقف رودريجو عن الأكل ورفع عينيه إلى آدم قائلا:

- ماذا تريد؟

فصمت آدم، ثم قال بحزم: أريدك أن تحكي لي عما رأيته في الزقاق تلك الليلة.

لم يفتح رودريجو فمه بكلمة، فتابع آدم:

- لقد كنت على موعد مع حسام تلك الليلة في الزقاق، يبدو أنه كان يدين لك بالمال؛ ربما كانت أموال مخدرات أخذها منك أو..

قاطعه رودريجو:

– ديون قمار.

صحح آدم المعلومة قائلا:

– نعم ديون قمار حوالي عشرين ألف دولار على ما أعتقد.. لقد وصلت ليلتها في موعدك، ولكن قبل أن تصل إلى الزقاق سمعت شيئا ما.. شيء يحدث في الزقاق، فأسرعت أنت ورجالك إلى الداخل، ولقد رأيت شيئا.. شيئا جعلك تعود مسرعا أنت ورجالك للسيارة وتبتعدوا بسرعة.

ثم مال إلى الأمام وهو يقول لرودريجو:

– هل هذا صحيح؟

لم يبد أي تعبير على وجه رودريجو، ولم يفُه بكلمة، فتابع آدم:

– سأعتبر صمتك هذا موافقة على ما قلت.

استطرد:

– رودريجو، نحن نعرف بعضنا منذ فترة طويلة، حتى صرنا كالأصدقاء، لا يستمتع أحدنا بحياته إلا في وجود الآخر. صدقني، أنا أتمنى اليوم الذي أستطيع اثبات أي شيء عليك، لأجعلك تتعفن في زنزانة بقية حياتك.. ولكني أعرف أنك لم تفعلها هذه المرة، وأنا هنا ليس كقائد شرطة برودواي، ولكن كصديق لدود يسألك سؤالا غير

رسمي بطريقة ودية، فهل ستجيبني، أم أنني بحاجة إلى أن أزج باسمك في القضية، ولدي شاهد سيعزز وجودك في مسرح الجريمة وقت وقوعها، فهل أنت على استعداد لتضيع وقتك بمثل هذه الترهات؟

مط رودريجو شفتيه باستسلام، ثم قال:

- أريد ألا يرد اسمي في هذا الموضوع.

هز آدم رأسه موافقا وهو يقول:

- لك كلمتي.

قال رودريجو:

- حسن،ا سأخبرك بكل ما أعرفه عن هذا الحقير. حسام سلامة هو مجرد قمامة، لا شيء أكثر.. مدمن، على استعداد لبيع أمه مقابل جرعته من المخدرات، ونصاب يخدع السذج ويحصل على أموالهم ليوفر احتياجاته من المخدرات، وإدمانه الآخر القمار.

بالطبع أنا لا أعرفه شخصيا، وليس لي تعامل معه، فهو يحصل على مخدراته من ديلر بسيط، ويخسر ما معه من مال بصورة منتظمة في أحد أندية برودواي التي أسيطر عليها. تستطيع أن تقول إنه عميل دائم، وإن كانت مكاسبنا منه هزيلة، مثله مثل آلاف غيره. ولكن هذا تغير منذ شهر.

منذ شهر تقريبا بدأ في الظهور على مائدة القمار، وبعد أن كانت خسارته بعشرات الدولارات، صارت بآلاف؛ فلقد خسر في ليلته

الأولى 20 ألف دولار، ولم يبد عليه أي تأثر. في الليلة الثانية خسر 30 ألفا، وهنا انتبهت إليه، وعلمت أننا وقعنا على صيد لا بأس منه.

ولكن يبدو أن غناه المفاجئ هذا كان ناتجا عن مبلغ من المال، ربما يكون اقتنصه من أحد ضحاياه بالنصب، فلقد أنهت الليلة الثالثة على ما تبقى معه، 100 ألف دولار دفعة واحدة. ولكن الحقير لم يكن معه سوى 80 ألفا فقط، وتعهد لي بأنه سيسدد الـ 20 ألفا في أقرب وقت.. بالطبع لست بحاجة لأخذ إيصال منه أو شيك بالمبلغ، فأنا لا أتعامل بهذه الطريقة.. من يريد أن يتهرب في دفع ما يدين به، لن يجد إلا رصاصتي بين عينيه، وأظن أنك تعرف هذا جيدا يا عزيزي آدم.

ابتسم آدم بدون أن يجيب، ثم أكمل رودريجو:

– في اليوم الذي يسبق الجريمة، اتصل بي وأخبرني أنه استطاع تدبير مبلغ الدين، فأعطيته موعدا بعد منتصف الليل، في ذلك الزقاق البعيد عن الزحام، والذي لن يرانا فيه أحد.

ليلتها وصلت متأخرا دقائق معدودة، وقبل أن أدخل الزقاق بخطوات، سمعنا صوتا قادما من الداخل.

انتبهت حواس آدم عند هذه النقطة، ورودريجو يكمل:

– صوت صدمة عنيفة، مقرونة بصرخة مكتومة، كما لو كان إنسان فوجئ باصطدام قطار مسرع.. صدمة، وصرخة، وارتطام بالأرض، صوت تدحرج، وارتطام بالجدار.

أسرعت أنا ورجالي بالدخول للزقاق..كانت الإضاءة ضعيفة، فقام أحد الرجال بإخراج كشاف، سلطه على الأشياء المتكومة عند نهاية الزقاق عند الجدار.

اختلجت ملامح رودريجو عند هذه النقطة، ثم أخذ يتكلم بضع كلمات بالإسبانية، وهو يرسم علامة الصليب بخوف، ثم قال:

– كانت هناك جثتان مسحوقتان تحولتا إلى أشلاء، أحداهما لا تزال ذرعاها ورجلاها تنتفض انتفاضة الموت..لقد قتل للتو، ولكن من فعل هذا؟

أخذ يرسم علامة الصليب مرة أخرى وهو يقول:

– الزقاق كان خاليا تماما، وطريقة القتل لا يستطيع أي بشري أن يفعلها.. آدم، أنا رجل واقعي جدا، ولكن أحيانا يجب أن نحني رأسنا مستسلمين، ونحي المنطق جانبا.. آدم، هذه الجريمة لم يرتكبها إنسان حي، بل هي من صنع الشيطان.

كان آدم يرغب في أن يقول ردا لازعا على رودريجو، ولكنه آثر الصمت، ثم قام بهدوء وهو يهز رأسه محييا، واتجه ناحية الباب، فاستوقفه رودريجو قائلا: آدم.. الجثة الثانية.. لقد كانت مجمدة تماما، ويحوطها الثلج الأبيض، كما لو كانت مستخرجة من الجليد الآن.

هز آدم رأسه مرة أخرى موافقا، ثم فتح الباب وخرج، وترك رودريجو الذي لم يعد له شهية للطعام.

***

وقف آدم في وسط الزقاق، وأغمض عينيه محاولا تصفية عقله المكدود.. لقد عمل بالشرطة منذ أن كان شابا صغير في العشرينات من عمره، وعلى مدى حوالي 25 عاما، مرت به مئات القضايا، ولكنه في كل مرة كان على الأقل يعرف كيف تمت الجريمة. إنها المرة الأولى له التي يعجز فيها عقله عن فهم كيف.. كيف تمت؟ هو لا يعنيه الآن من الذي نفذها، بقدر ما يهمه أن يعرف كيف فعلها.

فتح عينيه، ثم راح يتأمل الزقاق للمرة المائة. كان الزقاق قصيرًا، من بدايته حتى الجدار الذي يسده 20 مترا. تقدم خطوة حتى وصل إلى الجزء المهشم من أرضية الزقاق وقال:

– هنا.. هنا بدأ كل شيء.. لا توجد آثار دماء أو أشلاء قبل هذه النقطة، وهذا يترك لنا 10 أمتار أخرى حتى الجدار في نهاية الزقاق. عشرة أمتار من الدماء واللحم المفروم والملابس الممزقة، كما لو كانا قد سحلا أمام قطار مندفع. ولكن أين هو هذا القطار؟ من فعلها.

أخذ نفسا عميقا، ثم نادى مساعده قائلا:

– قف أنت هنا.. هذا هو المكان الذي أعتقد أن حسام كان يقف فيه، قبل أن يصل رودريجو. أنا سأكون رودريجو..

ثم خرج من الزقاق، وابتعد قليلا وهو يحاول تمثيل الحادث..

– نزلت من السيارة معي رجالي.. أنا بارد المشاعر، لا شيء يمكن أن يؤثر بي، سآخذ مالي من هذا الحقير وأتركه بعد أن أصفع مؤخرته، حتى لا يعود مرة أخرى لبرودواي كلها..

اتجه بثقة إلى الزقاق، توقف قبل أن يصل بخطوتين وقال:

– هنا أسمع الصوت.. صرخة حسام المكتومة، ارتطام عنيف، تدحرج على الأرض، ارتطام بالجدار..كل هذا في ثانيتين لا أكثر، وهنا أسرع إلى الزقاق وأدخل.

نظر إلى مساعده، الذي لا يزال واقفا في مكانه، فقال آدم:

– أحتاج ثانيتين آخرتين للوصول إلى هنا، وهذا يعني أن القاتل كان أمامه 4 ثواني لقتل حسام بهذه الطريقة وتحطيم جسد حسام الآخر المجمد، والذي لا أعرف المغزى من وجوده هنا أساسا، ثم الفرار دون أن يراه أحد.. كل هذا في 4 ثوان فقط.

تنهد بعمق، ثم قال:

– حسنا، سنعيد المشهد مرة أخرى،ولكن أنت ستكون رودريجو، وأنا سأكون حسام

أسرع مساعده لتنفيذ أوامره، فخرج من الزقاق ووقف هو في المكان المحدد، ونظر إلى مدخل الزقاق وأخذ يقول:

- أنا الآن حسام.. متوتر وخائف، رودريجو لا يرحم، ولكني أحضرت ماله معي.

وضع يده على جيب معطفه فطريا، وهو يقول:

- اهدأ يا حسام، لا تخف.. ستعطيه المال، ثم سيتركك تذهب بسلام. ربما سيحاول أخافتك كيلا تحاول اللعب معه ثانيا.. أنا أشعر به يقترب، أكاد أسمع خطوات أقدامه، قلبي يدق بصوت أعلى.. والآن..

نظر حوله، وكأنما ينتظر حدوث شيء ما، ثم اغمض عينيه وهو يتنهد في استسلام..

- لا شيء!.. لا يوجد شيء منطقي يمكن أن يحدث في هذه الثواني ويسبب مثل هذا الدمار.

أخرج قداحته وراح يفكر بعمق:

- يبدو أنك لن تجد في النهاية إلا تفسير رودريجو يا آدم.. الشيطان من فعلها.

ابتسم بمرارة، ولازالت أصابعه تقوم بفتح وغلق القداحة برتابة.. رفع عينيه إلى السماء، ليرى طائر الرخ العملاق يتقدم ناحيته، وقد

فتح قائد الطائرة عجلاتها مستعدا للهبوط في مطار كنيدي، فبدت كنسر يستعد للانقضاض على فريسته.

فجأة، بدأت بعض الكلمات تتداعى إلى عقله.

((آدم، هذه الجريمة لم يرتكبها إنسان حي، بل هي من صنع الشيطان))

((هل تعرف أن صوت هذه الأكياس، حين يختلط بصوت الطائرات العابرة فوق برودواي، فهي تبدو كمقطوعة موســـ..))

((الجثة الثانية، لقد كانت مجمدة تماما، ويحوطها الثلج الأبيض، كما لو كانت مستخرجة من الجليد الآن))

((تقرير الطبيب الشرعي يقول إن حسام سليمان مات مختنقا بنقص الأكسجين، كما قال إن خلايا جسده تهشمت مثل الزجاج، وهذا لا يحدث إلا إذا كان الجسد مجمد تماما، ثم تعرض لصدمة عنيفة.))

هذه الجريمة لم يرتكبها إنسان حي

هذه الجريمة لم يرتكبها إنسان حي

راحت الكلمات الأخيرة تتردد في عقله، وفجأه أصبح كل شيء واضح تماما في نقاء البلور.. ارتفعت دقات قلبه، وسقطت قداحته من يده، ولكنه لم يهتم.. لقد توصل إلى الحل.

وياله من حل.

***

دلف آدم إلى المكتب، الذي يحوي ثلاثة رجال جلسوا في انتظاره، فشد قامته، ووقف باعتدال، فتقدم أحد الرجال وصافحه قائلا:

– أهلا كابتن آدم، لقد طلبت مقابلتنا على عجل؛ هل هناك جديد في القضية التي تعمل عليها؟

قال آدم بلهجة عسكرية:

– نعم يا سيدي، لقد تم حل القضية بكل جوانبها.

قال أحد الرجال الجالسين:

– عظيم جدا.. تفضل قدم ما لديك.

أخذ آدم نفسا عميقا ثم قال:

– قبل أن أشرح لكم حل القضية أيها السادة، أريد أن أنبه سيادتكم أن ما ستسمعون، بالرغم من غرابته الشديدة، إلا أنه الحقيقة المجردة. القضية ببساطة أيها السادة ليست جريمة قتل.

غمغم الثلاثة بتعجب، في حين قال أحدهم:

– رجلين تمزق جسداهما ببشاعة، وألقيا في زقاق ضيق مظلم ليلا؛ كل هذا ليس قضة قتل يا كابتن؟

هز آدم رأسه موافقا، وهو يقول:

– نعم يا سيدي، ليست جريمة قتل.

ثم استجمع ما يريد قوله وقال بهدوء:

– إنها حادثة.. مجرد حادثة غير مقصودة، وليس فيها أي شبهه جنائية أو تعمد.

قبل أن يتساءل أحدهم، أمسك آدم بقلم من المخصص للكتابة على لوح الشرح الأبيض، ثم قام بالكتابه علي اللوح: حسام سلامة.

– هذا هو الضحية التي ماتت في الزقاق تلك الليلة، أما الآخر حسام سليمان، فلقد مات قبل هذا بـــ 12 ساعة على الأقل، وفقا للطبيب الشرعي. الضحية الأولى تعرض لصدمة عنيفة حطمت جسده، كما لو كان تعرض لصدمة من قطار سريع، أما الثاني فقد مات مختنقا بنقص الاكسجين وتجمد جسده لمدة 12 ساعة، قبل أن يتحطم جسده بسبب صدمة شديدة في نفس الزقاق.

الثاني لم يدخل أمريكا مطلقا.. أما الأول فهو يحمل الجنسية الأمريكية..

قال أحدهم بنفاد صبر:

– كل هذه معلومات نعلمها مسبقا.

قال آدم:

– سيدي، إن الذي قتل حسام سلامة لم يكن أبدا إنسان حي.. بل كان إنسان ميت.

بدت الدهشة على الوجوه، فتابع آدم:

– حسام سليمان.. لقد استعلمت عنه، وعلمت أنه يعمل بمطار القاهرة كحامل للحقائب. يمكن أن ترى بعين الخيال هذا الشاب الفقير، الذي يحلم بالسفر إلى أمريك،ا التي يتخيل أنها ستجعل منه مليونيرا، فتنبت في رأسه تلك الفكرة – العبقرية من وجهة نظره– ماذا لو استطاع التسلل إلى الطائرة؟ ولكن كيف؟

هنا يلهمه عقله تلك الفكرة.. عجلات الطائرة لها غرفة خاصة بباطن الطائرة، قام هو بالدخول إليها أثناء وقوف الطائرة على أرض المطار، واختبأ بالداخل. عندما ستنطلق الطائرة متجهة إلى أمريكا، ستنضم العجلات إلى باطن الطائرة، وتغلق الغرفة الصغيرة، حتى يفتحها قائد الطائرة مرة أخرى قبل الوصول إلى مطار كنيدي بنيويورك.. ولكن المسكين لم يكن يعلم حقيقة يعلمها كل العاملين في مجال الطيران..أن غرفة العجلات غير مكيفة الهواء أو معزولة حراريا مثل باقي قطاعات الطائرة.

لذلك، فبمجرد أن وصلت الطائرة إلى ارتفاع الطيران، والذي يتراوح بين 10 و 15 كيلو متر، قلت نسبة الأكسجين لدرجة مرعبة، فمات المسكين اختناقا.. درجة الحرارة على هذا الارتفاع

تتراوح بين 40 إلى 50 تحت الصفر، فتجمدت جثته كما لو كانت في ثلاجة حفظ لحوم ممتازة الكفاءة..

هذا هو حسام سليمان.. نأتي إلى الضحية الأولى، حسام سلامة.. لقد جره حظه العاثر إلى ذلك الزقاق المظلم تلك الليلة.

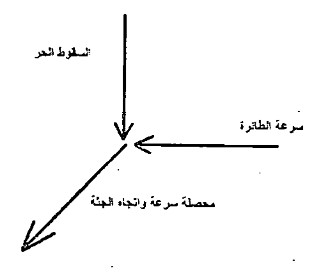
توقف آدم قليلا، وقد تذكر وعده لرودريجو:

– لقد وجدنا معه 20 ألف دولار، وهو ذو تاريخ إجرامي، فربما كانت هناك صفقة مشبوهة يدبرها. المهم، أنه تواجد في المكان الخطأ وفي الزمان الخطأ. ففي نفس التوقيت، كانت الطائرة المصرية التي قضت 12 ساعة من الطيران قد اقتربت من مطار كنيدي، ومن الطبيعي أن يقوم قائدها بفتح العجلات استعدادا للهبوط.

ولنا أن نتخيل ما حدث تلك الليلة.. جثة حسام سليمان تنزلق من حجرة العجلات، لتهوي من حالق، وفي نفس الوقت تستمر في الاندفاع بنفس سرعة الطائرة.

يمكن أن نستعين بقوانين الفزياء، لمعرفة سرعة جسد ساقط من هذا الارتفاع بوزن 90 كيلو جرام، وبسرعة اندفاع حوالي 400 كيلو متر في الساعة، ستكون محصلة القوى هي جمع سرعة السقوط الحر للجسم وسرعة الطائرة التي اكتسبها جسد حسام..

راح يرسم رسما توضيحيا للنظرية



يمكنك أن تتخيل جسد متجمد، يندفع بسرعة قطار سريع، ليرتطم بجسد حسام سلامة في الزقاق المظلم.. صدمة تكافئ صدمة شاحنة مسرعة أو قطار مسرع، مزقت جسده، بالإضافة لتحطم جسد الآخر المجمد.

توقف آدم، وراح يلهث كأنما انتهى من سباق طويل، فران صمت عميق على الحجرة، ثم قال أحدهم:

– استنتاج صعب التصديق للغاية.

قال آدم:

– نعم يا سيدي.. ولكن على الرغم من غرابته، فهو التفسير الوحيد.

ثم قال:

– لقد استعلمت من المطار، وعرفت أن الطائرة المصرية القادمة من القاهرة قد هبطت ليلتها في نفس التوقيت الذي عينه الطبيب الشرعي لوفاة حسام سلامة.

قال الرجل:

– أليس غريبا أن يأتي مصري، اسمه حسام، عمره **31** سنة، من مصر لمدة **12** ساعة، ليسقط على مصري آخر اسمه حسام، وعمره **31** سنة، فيقتله؟.. أليس غريبا أن من وسط **9** ملايين إنسان، هم سكان نيويورك، لا يسقط إلا على حسام آخر؟

ابتسم آدم، ثم ترك القلم وهز رأسه في حكمة وهو يقول:

– صدفة!!

***

أعتقد أن القارئ، بعد أن أنهى قصة الجريمة، فهو يتفق مع آدم أن الأمر هو صدفة، على الرغم من غرابتها الشديدة.

حسنا.. ولكن الحقيقة أن القصة لم تنته بعد.

لا زالت هناك حكاية أخرى لم يعرفها آدم.. وأعتقد أنه لو عرفها لما تجرأ على أن يقول أن الأمر مجرد صدفة.

القاهرة.. مبنى أمن الدولة

دخل ذلك المخبر غليظ الملامح، وهو يسحب (أكرم) من تلابيبه إلى حجرة مكتب، يجلس عليه ضابط يتصنع البرود وهدوء المشاعر وعدم الاكتراث، فأدى له التحية العسكرية، فرفع عينيه إلى أكرم ببرود، ثم قال له: تعالى يا أكرم.

اقترب أكرم بساقين من المكرونة، وهو لا يقوى على رفع عينيه إلى الضابط، في حين قال الضابط:

- اجلس.

نظر إليه أكرم، ثم هم بالجلوس، حين هوت صفعة كالصاعقة على قفاه، فهب مفزوعا، في حين قال الضابط متصنعا الشفقة:

- ليس بهذه القسوة يا صبحي، فلتجعل كفك خفيفا بعض الشيء، فأكرم سيتعاون معنا ولن يتعبنا.

هز أكرم رأسه موافقا بلهفة قائلا:

- أنا تحت أمر سيادتك

قال الضابط:

- أنت الصديق الوحيد لحسام سليمان وكاتم أسراره، فأجبني: كيف وصل إلى أمريكا، ولماذا ذهب هناك؟ هل أنتم خلية إرهابية؟

قال أكرم بفزع:

- لا لا.. لا يا سيدي ليس أي شيء من هذا.. سأقول كل شيء يا سيدي.. سأقول كل شيء.

من حوالي شهرين، عاد صديق قديم لنا من أمريكا اسمه حسام سلامة.. كان مثل التوأم بالنسبة لحسام، تربيا معا، ودخلا المدرسة معا، وكانا في نفس الصف من الإبتدائي وحتى الدبلوم. هاجر إلى أمريكا منذ 10 سنوات، قال لنا إنه حصل على الجنسية الأمريكية، وأنه يعمل في وظيفة محترمة تدر عليه عائدًا ضخمًا، وأن أمريكا بلد الفرص التي لا تعوض، وأنه صار غنيا في وقت قصير. ولقد عرض علينا مشاركته في شركة يؤسسها في أمريكا، ستدر علينا مئات الألوف خلال شهور، وأنه سيديرها ويرسل إلينا العائد.

أما أنا، فلم أكن أملك شيئا يمكنني من الدخول في هذه الشراكة، ولكن حسام كان لديه بيت ورثه عن أبيه، هو كل ما يملكه هو وأمه من حطام الدنيا.. تحمس حسام لفكرة صديق عمره، فباع بيته بمبلغ ضخم حوالي 750 الف جنيه، لم يبق شيئا منها لنفسه، بل أعطى صديقه المبلغ كله، رغم تحذيري له من إعطائه كل المال.. ولكنه فعل.

أخذ حسام سلامة المال من حسام، وحوله لدولارات.. حوالي 120 ألف دولار.. وسافر حسام، وانقطعت أخباره. انتظر حسام أن يتصل به يخبره عما تم في تأسيس الشركة أو أي شيء، ولكنه لم يفعل.. حاول الاتصال به مرارا، ولكن هاتفه كان قد أغلق إلى الأبد.

كل هذا وحسام يكذب قلبه، ويحاول اختلاق الإعذار لصديقه، حتى كان اليوم الذي قابلنا فيه شخصا كان يعمل في أمريكا ويعرف حسام جيدا، وحكى لنا كل شيء عنه. عرفنا أنه نصاب ومدمن مخدرات وقمار، وأنه سجن عدة مرات، وأنه لا يملك شيئا، وأن كل ما قاله هو محض كذب.. يومها اسودت الدنيا في عين حسام، ويومها قرر الانتقام من صديقه، الذي استأمنه على كل ما يملك، ولكنه خان صديقه وتركه دون شيء.

قرر السفر إلى أمريكا، ولكن كيف؟.. لكي يحصل على تأشيرة الدخول، فالأمر يتطلب حساب بنكي بمبلغ كبير، وهو لم يعد يملك شيئا.. هو حتى لا يملك ثمن تذكرة طيران إلى أمريكا.

بعد أيام من التفكير، جاء إليّ وفاتحني في فكرة هي الجنون بعينه.. سيختبئ في غرفة العجل في الطائرة حتى أمريكا، وهناك سيتصرف ويصل إلى حسام، وإما يعيد إليه ماله وإما يقتله وينتقم منه.

بالطبع رفضت هذه الفكرة المجنونة، وحاولت إثنائه عنها، ولكنه كان قد قرر، ولم يعد لمحاولاتي أي أثر. ولكني توقعت أنه قال هذا في لحظة غضب، ولم أكن أتصور أنه سيفعلها بالفعل.. صدقني يا سيدي.. لم أكن أعلم.

أنهى أكرم قصته، ثم أجهش في بكاء هو مزيج من الحزن على صديقه ومرارة الإهانة.

والآن دعونا نستخلص الأحداث كاملة:

حسام سلامة النصاب، الذي مسخت شخصيته بعد إدمانه للمخدرات والقمار، عاد لمصر لينصب على صديق عمره، ويأخذ كل ما يملكه، ليخسره على موائد القمار في برودواي..حسام سليمان ضحية النصب قرر الانتقام والسفر إلى أمريكا بأي وسيلة، حتى لو عن طريق التسلل في غرفة عجلات الطائرة.. ولكنه مات مختنقا بمجرد إقلاع الطائرة، لارتفاع الطيران المدني، وتجمد جسده بفعل برودة الجو في الطبقات العليا. عند اقتراب الطائرة من مطار كنيدي، فتحت حجرة العجلات، ليسقط حسام سليمان المتجمد على شوارع وأزقة نيويورك، في نفس الوقت الذي كان فيه حسام سلامة في زقاق مظلم، ينتظر رودريجو ليعطيه بقية أموال القمار. ولكن رغم اتساع نيويورك، والملايين التسعة الذين يعيشون فيها، إلا أن جثة حسام سليمان لم تسقط إلا على الزقاق الذي يقف فيه حسام سلامة، ولا تنتقي من التسعة ملايين إلا هو لتسقط عليه، بسرعة قطار منطلق بأسرع ما لديه، ليموت في الحال.. وليتحقق انتقام حسام.

والآن، بعد أن عرضت كل الوقائع والترتيبات والتوافقات، في أي خانة نستطيع أن نصنف هذه الحادثة؟..

في خانة ترتيبات القدر؟

ام في الخانة الآخرى؟..

مجرد.. صدفة!!

بوسي



جافى النوم عينيها، فراحت تتقلب في فراشها، دون رغبة حقيقية في النوم.

سحقا لهذا.. لماذا أصر على مشاهدة هذه الأفلام الوثائقية عن الافتراس الحيواني قبل النوم؟

تذكرت بحنق ذلك الفيلم الذي جعل النوم يطير من عينيها.. لم تكن تتخيل أن هناك في الطبيعة كائنات بمثل هذه البشاعة.

لقد رأت مئات الأفلام عن طرق الافتراس عند الحيوانات المفترسة، والتي تشترك معظمها في طريقة رحيمة لقتل الضحية عن طريق خنقها لتموت، قبل أن يبدأ الحيوان في افتراسه.. ولكنها الليلة شاهدت فيلما وثائقيا عن الضباع، وكاد الغثيان يغلبها، وهي ترى تلك المخلوقات القذرة وهي تحيط بحمار وحشي، ليثخنوه بالجراح قبل أن يبدأوا في التهامه حيا!!

حيث ظل الحمار المسكين يشاهدهم وهم يلتهمونه حيا، وكأنما يستجديهم لينتهوا مما يفعلونه بسرعة.

اللعنة على تلك المخلوقات العفنة، بصيحاتها التي تبدو كضحكات ماجنة تثير الاشمئزاز. كانت تفكر في هذا المصير المرعب الذي سيلاقيه من يقع في قبضة الضباع.. كان ذلك عندما غلبها النوم، لتجد نفسها واقفة أمام قطيع الضباع، الذي يمارس مهمته البشعة في التهام الحمار الوحشي.

اللعنة ما الذي جاء بي إلى هنا؟

كان الحمار لا يزال جالسا تلك الجلسة المستسلمة، ينظر بين الفينة والأخرى إلى الضباع التي تقتطع من لحمه، وتلوكه في شراسة مرعبة.

بالتأكيد أنا في حلم.. كان هذا ما دار في عقلها، وهي تتراجع ببطء مبتعدة عن حشد الضباع هذا.

كانت تتراجع بظهرها ببطء، حتى لا تلفت نظر الضباع المشغولة مع الحمار المستسلم، حين رفع ضبع قوي رأسه يلوك قطعة لحم، فانعكست الإضاءة التي لا تعرف لها مصدر على عينيه، التي أضاءت كعيون السنوريات.. لكم كانت تدهشها هذه الظاهرة العجيبة، وهي تراقب قطتها بوسي في الظلام.

قطتها بوسي!.. لكم تشعر بالحنين إليها الآن.

كان الضبع ينظر لها بعينيه المضيئة، ثم ترك بقية القطيع منشغلا في الحمار، الذي لازال منتظرا الموت، الذي أبطأ عليه.. وجرى بسرعة في اتجاهها..

اللعنة لقد رآني.

أدارت ظهرها وأسلمت ساقيها للريح محاولة عدم التعثر، بسبب الأرض الطينية والحشائش التي تبدو كالأشواك..

اللعنة! متى أستيقظ من هذا الكابوس؟

التفتت بعينيها إلى ما خلفها، لترى ذلك اللعين لازال يعدو خلفها بحماس.. اقشعر جسدها رعبا وهي تتخيل نفسها راقدة تشاهد هذا الكائن النتن يأكل لحمها حية، وهو يطلق ضحكاته الماجنة.

أغمضت عينيها، وهي تتمنى أن تفتح عينيها لتجد نفسها على سريرها، ولكنها كانت خطوة غبية منها، حيث لم تر ذلك النتوء الصخري في الأرض، لتتعثر فيه وتسقط على وجهها. التفتت برعب، لتجد الضبع اللعين يضحك ضحكته الماجنة بانتصار، وهو يستعد للانقضاض عليها..

أين أنت يا بوسي؟

فجأة، اندفعت بوسي لتحول بين الضبع وبينها.. كانت قطتها الحبيبة، ولكنها تضخمت لتصير بحجم لبؤة قوية، انقضت بشراسة على الضبع، الذي فوجئ بها، فصرخ برعب وهو يحاول التملص منها؛ ولكن هيهات.. لقد أنشبت بوسي أنيابها في عنقه، وراحت بقوة تعتصر قصبته الهوائية، فراح يضرب الهواء بقوائمه، في محاولة أخيرة للتملص، قبل أن تضعف ضرباته ثم تسكن تماما، فألقته بوسي باشمئزاز جثة هامدة، ثم التفتت إليها بعينيها المضيئة.

لم تدر في هذه اللحظة هل تفرح بنجاتها أم تتوجس خيفة من قطتها التي صارت بحجم أسد بالغ، قادرة على تمزيقها إربا في ثوانٍ معدودة.

لم تمهلها بوسي وقتا لتفكر، حيث اندفعت نحوها لتضع يديها على كتفيها، ثم تلعق وجهها بلسانها الخشن بحب جارف، جعلها تضحك قائلة كفى كفى يا بوسي كفى.!

استيقظت في تلك اللحظة على قطتها الواقفة على صدرها تلعق وجهها، فابتسمت لها وهي تعتدل على فراشها:

– صباح الخير يا منقذتي.

أمسكت قطتها وراحت تداعبها قليلا، ثم حاولت إزاحة الغطاء عنها لتقوم من فراشها، حين أحست بثقل يجثم على الغطاء.

نظرت إلى أسفل قدميها عند طرف الفراش، لتجد شيئا ملتفا بالغطاء.. شيء ما لا تدري ما هو.

مدت يدا مرتجفة لتزيح الغطاء عن هذا الشيء، ثم تراجعت في رعب محتضنه قطتها.

كان الشيء القابع على الفراش هو جسد الضبع.. الضبع القتيل، الذي رأته في حلمها

الضبع الذي قتلته بوسي.!!!



داكاو



(ملحوظة: جميع المعلومات الواردة في القصة عن معتقل داكاو هي معلومات حقيقية)

***

شتاء عام 1943.. معسكر داكاو للاعتقال

غطت الثلوج البيضاء ساحة المعسكر الفسيحة، واشتدت برودة الجو لدرجة مخيفة، مما جعل (هانز) يحكم إغلاق معطفه جيدا، ويقرب يديه من فمه، لينفخ فيها بخارا ساخنا، طالبا لبعض الدفء، وهو ينظر إلى السجناء اللذين أمر قائد المعسكر أن يظلوا في الساحة، دون أن يحتموا بأي مكان أو يمنحوا ملابس مناسبة لهذا الطقس. كان السجناء يقتربون من بعضهم، حتى صار اقترابهم التحاما طلبا للدفء.

هانز ينظر إلى هؤلاء المساكين بشفقة الإنسان، وإن كان ما تلقنه في معسكرات شباب هتلر من نظريات عن الجنس الآري ودونية

الأجناس الآخرى يدفعه دفعا للتنكيل بهؤلاء الضعفاء مع زملائه، وإلا وشى به واشٍ لقائد المعسكر، الذي سيجدها فرصة للتشكيك في أصوله الآرية النبيلة.

لقد كان صغيرا حين اعتلى هتلر سدة الحكم في ألمانيا، آمن بأفكار النازية وتحمس لها، وبمجرد انتهاء دراسته سارع بالانضمام إلى قوات (الفيرماخت) طمعا في أن يشارك في صناعة المجد الألماني، وزرع العلم النازي (سواستكا) على كل شبر من أوروبا.

إلا أن خيبة الأمل جاءته عندما أرسل إلى داكاو، حارسا على هؤلاء المساكين. معتقل داكاو مهول الحجم، يسع مائتي ألف سجين من عرقيات وأديان مختلفة.. منهم المسيحي المتدين، ومنهم الشيوعي المتطرف، واليهودي، والغجري، وخليط من جنسيات عديدة، ففتوحات النازي خلال السنتين الماضيتين كادت تجهز على أوروبا كلها.

كان الحرس يتمعنون في إيذاء السجناء والانتقاص من كرامتهم.. كم من مرة رأى حارسًا يسكب حساء أحد السجناء على الأرض ويأمره بأن يلعقه.. أو يضع الفضلات على الخبز ويجبر السجين على تناوله.. ناهيك عن الضرب والتنكيل الوحشي، بالإضافة لتركهم في العراء في هذا البرد القارس دون غطاء أو حماية.

كان يشفق عليهم.

ويحتقرهم.

هذه المفارقة التي تدل على أن معسكرات شباب هتلر لم تنجح في مسخ هذا الشاب بالكلية.

في وسط الساحة المترامية الأطراف، كان هناك سور عالٍ من الأسلاك الشائكة، يفصل جانب الرجال عن جانب النساء. بالطبع لم يكن الأمر يحتاج لهذا، فمن يعاني معاناة هؤلاء المساكين بالتأكيد أقصى ما سيتمناه هو الموت بسرعة.

كان قائد المعتقل يسمح للسجناء من الرجال والنساء أن يلتقوا مرة كل أسبوع، لرؤية بناهم وزوجاهم من وراء السلك، دون حد الاقتراب، وإلا تعرض المقترب للموت في الحال، وتسحب جثته إلى المحرقة في نهاية المعتقل للتخلص منها، أو ربما وجد فيها باقي السجناء وجبة أفضل حالا من الطعام الذي يقدم لهم.

في هذا اليوم رأى (أزميرالدا).

غجرية هي.. جميلة مثل الملائكة.. سوداء الشعر جميلة القد، على وجهها مسحة حزن لم تنل من جمالها، بل زادته توهجا.

كانت تنظر إلى الرجال والنساء على جانبي السلك المعدني، يلتمسون لحظة من الأمل في قلب هذا الجحيم المقيم، فلا تملك إلا أن تحسدهم. فرغم ما هم فيه من ويل، إلا أن هناك على الجانب الآخر

من السلك من يهتم لأمرك؛ أما هي فليس لها في الدنيا من أحد، بعد أن قتل النازي كل عشيرتها، فصارت وحيدة في جحيم داكاو.

يومها، تحركت في هانز مشاعر جديدة، لم يختبرها من قبل.. شعر بميل شديد لها، وبشفقة كبيرة لحالها.

اقترب من السلك حيث جلست هي على الجانب الآخر، منزوية لا تكلم أحدا، فناداها بلطف: هاي.. أنت.

رفعت عينا خائفة إليه، فأشار إليها بالتقدم، فارتسم الذعر على وجهها، فقامت كالملسوعة وأسرعت بالالتحام في جحافل النساء، حتى لا يستطيع العثور عليها..مسكينة، يبدو أنها ظنت فيه ظن السوء.

حزن بشدة عندما لم يعثر عليها ذلك اليوم، ولكنه –ومنذ هذه اللحظة– صار قلبه متعلقا بأزميرالدا.. رآها أكثر من مرة خلال السلك، وحاول مناداتها، ولكنها كانت تفر هاربة بمجرد رؤيته. حتى أتى ذلك اليوم..

كان يقوم بجولة حراسته على طول السلك العازل، حين رآها تحمل دلوا به ماء، تسرع للعودة به إلى رفيقاتها، فناداها من خلال السور. التفتت إليه، فارتسم الذعر على وجهها، وكادت تعدو مبتعدة، ولكنه أسرع قائلا:

- أرجوكِ لا تهربي، أنا لا أقصد إيذائك.

توقفت عن الركض متوترة، والتفتت إليه بحذر.. هذا الفتى يحبني ولا شك!! كان هذا ما دار في عقلها، وهي تنظر إلى وجه هانز الطيب، الذي ارتسم حبه في ملامحه ونظراته، حتى أن أزميرالدا لم تحتج أكثر من نظرة واحدة حتى تعرف هذه الحقيقة.

قال لها بهدوء: اقتربي، أريد أن أرى وجهك عن قرب.

كالمسحورة اقتربت منه، حتى لم يعد بينها وبينه إلا أمتار قليلة، فسألها بلهفة: ما اسمك؟

أجابته بعفوية: أزميرالدا.

قال: أنا هانز.. أرجوكِ لا تخافي مني مرة أخرى، فأنا لا أرجو لكِ إلا الخير.

كانت ملامحه ناطقة بالصدق، فأطرقت بوجهها خجلا، وتعجبت من شعور الخجل الجديد عليها، وهي التي لم تعرف إلا شعور الخوف منذ فترة طويلة.

ابتسم هانز ابتسامة مطمئنة وهو يقول: هل يمكن أن نصبح أصدقاء؟

بدون أن تفكر وجدت أزميرالدا نفسها تقول: بالتأكيد.

كانت الأيام التالية هي أجمل أيام حياة هانز وأزميرالدا.. فرغم كونهما في قلب بؤرة من بؤر الجحيم، إلا أنهما لم يكترثا كثيرا لهذا. لم يعد داكاو في عينيهما مثلما كان، بل ربما أحسا لبعض الوقت بالحب لهذا المكان الذي شهد لقاءهما.. كانا يلتقيان يوميا عند السلك العازل ليتحدثا..تحدثا عن كل شيء تقريبا، عن حياته وحياتها..صارحها بمشاعره تجاهها، فوجد أنها لا تقل عنه حبا.. يومها شعر أنه يملك الدنيا كلها، وإن كان لا يقدر على أكثر من أن تعانق أصابعه أصابعها من خلال السلك العازل.

مرت الأيام، والعاشقان غارقان في الحب.. لم ينظر لها يوما أنها سجينته، ولم يخطر ببالها أنه سجانها.. أحبا بعضهما دون حتى أن يفكرا في مصير هذا الحب في داكاو.

ولكن؛ ولأن الرياح تأتي دوما بما لا تشتهي السفن، فقد انتهى كل هذا في أحد الأيام.

جاءته تتكفأ، وعلى وجهها بدا توتر وقلق بلا حدود.. سألها بتوتر: ماذا حدث؟ هل أصابك مكروه؟

أجابته: لا.. ولكن اليوم استدعاني قائد المعتقل.

بهت هانز وقال بتوتر: قائد المعتقل؟ وفيما كان يريدك؟

قالت بحرج وهي تطرق وجهها للأرض: لقد قدم لي عرضا بالإفراج بعد ستة أشهر من الآن

هللت أسارير هانز وقال: رائع هذا خبر عظيم.

ولكنه انتبه لكلمة العرض تلك، فقال لها بحذر: وهذا الإفراج.. ما مقابله؟

صمتت لثواني، وهي تحاول صياغة ما تقول، ثم قالت بمرارة: أن أنضم لبيت الرزيلة.

صعق هانز وقد فهم كل شيء.. فبيت الرزيلة هو أحد الأفكار الشيطانية للنازيين في معسكر داكاو حيث أغرى الحرس بعض النساء بممارسة الرزيلة لمدة 6 أشهر مقابل الإفراج عنهن، فقبلت البعض هذه (المهنة) على أمل الخروج من هذا الجحيم، وهن لا يعلمن أهن لن يخرجن من داكاو إلا مع نهاية الحرب، هذا لو ظللن إحياء لوقتها.. كان بيت الرزيلة أيضا مكافأة، يكافئ بها الحرس بعض السجناء المجتهدين.

بهت هانز وصرخ: ارفضي.. أنت لا تعرفين شيئا، فهم لن يخرجوك، لا بعد ستة أشهر ولا ستة سنوات.

هزت رأسها بتفهم وهي تقول: أعرف.. ولقد رفضت بالفعل.

هدأت نفس هانز قليلا ثم قال: وبماذا رد عليك؟

قالت بحزن: لقد أمهلني إلى الغد، لأقبل وإلا....

ابتلعت ريقها وهي تقول بتوتر: وإلا سيرسلني إلى الدكتور / منجل في اوشفيتز.

دارت الدنيا بهانز عند سماعه باسم الشيطان جوزيف منجل.. الرجل الذي قطع رؤوس الرجال وزرعها للكلاب.. الرجل الذي حكيت عنه أساطير في تجاربه على البشر.. كان مصير حبيبته في بيت الرزيلة في داكاو حلما باسما مقارنة بما ستراه في اوشفيتز.

فكر هانز قليلا، ثم قال لها بحزم: لم يعد لنا بقاء هنا يا أزميرالدا.

نظرت إليه بدهشة وهي تتساءل: ماذا تعني؟

قال: الليلة يجب أن نهرب من داكاو.

بدا الذهول عليها وهي تقول: هل جننت؟.. ألا تعلم أن الهروب من داكاو مستحيل؟

صرفها بإشارة من يده وهو يستحثها قائلا: دعي أمر المستحيل لي.. المهم أعدي نفسك الليلة، بعد أن يخلد الجميع للنوم، تعالي إلى هنا وسأعد كل شيء.

في الموعد المحدد أتت أزميرالدا متلفتة، لتتأكد أن أحدا لم يرها قادمة إلى هنا. بعدها بدقيقة حضر هانز، حاملا معه مقصا ضخما،

فأشار إليها لتبتعد قليلا، ثم راح بصبر يقوم بقص الأسلاك المعدنية، ليفتح طريقا عبرها، لتعبر حبيبته إليه.

بعد عدة دقائق من العمل، انفتح الطريق، فعبرت أزميرالدا بسرعة، لتلقي بنفسها في صدر هانز، الذي تلقاها بلهفة وهو يربت على رأسها بحنان. ثم همس في أذنها، وكأنه يخشى تعكير هذه اللحظة عليها: هيا يا حبيبتي لا وقت لهذا الآن، يجب أن نخرج من هنا بسرعة.

رفعت إليه عينا متسائلة وقالت: وكيف سنهرب من هذا الجحيم؟

أمسك بيدها وهو يسرع الخطا بعيدا عن السلك، إلى دغل من الشجيرات الصغيرة على أطراف المعسكر، وهو يشرح لها: سنمشي من هنا بمحاذاة هذا الدغل.. ستختفي أنت بداخله، وأنا سأمشي من الخارج لأغطي عليك، حتى نصل إلى البوابة الرئيسية للمعسكر.. لدي صديق من بلدتي يعمل الليلة في طاقم حراسة البوابة، هو سيتصرف ويجد طريقه لإخراجنا، وعندما سنكون في الخارج دعي الأمر لي.

كانا قد اقتربا من الشجيرات، عندما خرج فجأة من داخلها عشرة جنود، وصوبوا أسلحتهم تجاههما. وفجأة، وجد هانز نفسه وأزميرالدا محاصرين، ومن وسط الرجال ظهر قائد المعتقل بصحبة

صديقه حارس البوابة وقال: هل كنت تعتقد أن شابا آريا نبيلا سيخون النازية من أجلك أيها الخائن.

نظر هانز إلى صديقه الواشي نظرة نارية، ولكنه لم يكن يملك من أمره شيئا، والرجال يصوبون إليهما الأسلحة. ثم تابع القائد بسخرية: لماذا خنتنا يا هانز؟ من أجل غجرية حقيرة أدنى قدرا من الحشرات.

ثم بغل سأله: لماذا يا هانز؟ لماذا؟

صرخ هانز: لأني أحبها!

صدمت الكلمة القائد، فنظر إليه بدهشة، ثم هز رأسه متفهما وقال: تحبها.. حسنا حسنا دعني إذا أؤجج هذا الحب يا صغيري.

ثم، وبإشارة من يده، اتجه خمسة من الجنود ليمسكوا بأزميرالدا ويسحبوها ناحية القائد.. حاول هانز الدفاع عنها، ولكن زملاءه أمسكوه وقيدوا حركته، وجعلوه يجثو على ركبتيه.

اتجه القائد إلى أزميرالدا، ومد يده يداعب خصلات شعرها وهو يقول: فتاة جميلة ولا شك.

ثم التفت إلى هانز قائلا: أتعرف يا هانز ماذا سأفعل بحبيبة قلبك هذه؟

ثم وبدون انتظار إجابه أكمل: سأجعل كل جندي في داكاو يتناوب عليها الاغتصاب أمام عينيك يا عزيزي، وفي النهاية سأقطع رأسها بسكيني، وأعلقها في رقبتك.

ثارت الدماء في عروق هانز، فأراد التملص، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة، فجثا مقهورا، والقائد يتابع: سأجعلك الآن تشاهد عينة صغيرة مما ستراه خلال الأيام القادمة يا صغيري.

ثم، وبإشارة من يده، اتجه الجنود الخمسة إلى أزميرالدا، والتفوا حولها كالذئاب التي تحاصر شاة بائسة، وهانز يصرخ بأعلى صوته: دعوهاااااااااا أرجوكم دعوهاااااااااااااااا

ولكن لا أحد يسمع صوته هنا، فالقلوب لم يعد فيها ذرة من الرحمة. في هذه اللحظة، رفع هانز عيناه إلى السماء، فقال القائد بسخرية: ما هذا؟ هل تستغيث بالله يا عزيزي هانز؟

التفت إليه هانز بنظرات باردة وهو يقول: لا.. بل بتقنية الدعم.

بدت الحيرة على وجه القائد، غير فاهم لما يقول هانز، ولكن هانز أخرجه من حيرته عندما صاح: تقنية الدعم.. درع كهرومغناطيسي وسلاح.

في اللحظة التالية، اندفع الجنود اللذين يمسكون بهانز بعيدا عنه، كأن قوة خفية ركلتهم إلى الخلف. ثم فجأة، وكأنما ظهر من العدم،

تجسد سلاح عجيب الشكل في يد هانز، رفعه باتجاه الجنود و.. أطلق.

انطلقت دفقات من الأشعة المهلكة تحصد الرجال كمنجل الحصاد، وهم غير فاهمين ما يجري.. وحينما أراد بعضهم رد النيران، كانت رصاصاهم ترتد عن درع خفي يحيط به، في حين كانت أشعته لا تبقي ولا تذر. لم يدم القتال أكثر من دقيقة واحدة، انتثرت على أثره عشرة جثث على الأرض العشبية، واتجه هانز بثقة إلى القائد، الذي رأى ما يحدث فظن أنه في كابوس.. وجه هانز سلاحه إلى رأس القائد و.. أطلق النار.

هل جننت؟

كانت هذه الصرخة من أزميرالدا، التي وقفت وقد ارتسم على وجهها الغضب الشديد، فابتلع هانز لعابه قائلا: ماذا يا عزيزتي؟ فيم أخطأت هذه المرة؟

صرخت بغضب: درع كهرومغناطيسي وسلاح ليزري في وقت الحرب العالمية الثانية؟

بدا التوتر عليه وراح يتلعثم وهو يقول: لم يكن.. لم يكن أمامي حل آخر.

هزت رأسها في يأس، ثم مدت يدها لتزيح شيئا ما غير مرئي عن عينيها وهي تقول: لقد سئمت من اللعب معك.

اختفت من أمامه فجأة، فمد يده هو الآخر ليزيح جهاز المحاكاة المرئية عن عينيه وهو يناديها: انتظري يا عزيزتي.. هل هذا خطئي أني لم أستطع رؤيتك تغتصبين أمامي؟

قاما من أمام جهاز المحاكاة العملاق، وكانت هي غاضبة جدا وهي تقول: أنت دائما تفسد لحظات الألم والمعاناة باستهتارك واستسهالك.. ربما كان من الأوفق أن تنتحر حزنا عليّ.. نعم نعم هذه ستكون نهاية رومانسية جدا.

هز رأسه مستسلما وهو يقول: حسنا.. أعدك في المرة القادمة سأنتحر.

صفقت كفيها بجزل طفولي قائله: حسنا.. سوف نجرب مرة أخرى، ولكن إياك أن تفسد السيناريو هذه المرة.

ثم وبدون تبادل كلمات أخرى، أعادا الاتصال بجهاز المحاكاة..

كانت تلك القاعة واحدة من مئات القاعات الأخرى التي يحويها هذا البناء العملاق.

البناء الذي كتب عليه بأضواء الليزر: (مركز الحب الإلكتروني)

وأمام البناء كانت شاشة عملاقة تعرض فيلما دعائيا عن نشاط المركز.

((هل تريد أن تجرب الحب؟

هل سمعت عن روميو وجولييت وتمنيت أن تخوض تجربتهم؟.

هل أنت عاشق لأفلام الرومانسية الكلاسيكية وترغب في أن تكون بطل أحد هذه الأفلام؟.

نحن في مركز الحب الإلكتروني نحقق لك حلمك مع من تحب.

فقط اختار التيمه وسيقوم المحاكي بتجسيد أحلامك لتعيش حلمك كما لو كان واقعا.

في مركز الحب الإلكتروني

الحلم يصبح حقيقة.

***

الفهـــــرس

